مركز نماء NAMAA CENTER
مركز نماء للدراسات والأبحاث حول الصحراء

Democratic Arab Center
for Strategic Political and Economic Studies

المركز الجامعي للدراسات والبحوث الافريقية
CENTRE UNIVERSITAIRE DES ETUDES ET RECHERCHES AFRICAINES

إفريقيا والتصوف

الأبعاد الروحية والاجتماعية والتنموية

Africa and Sufism: Spiritual, Social, and Developmental Dimensions

كتاب جماعي محكم

الإشراف والتحرير:
د. وسام شهير
د. سعيد الاشعري

2025

المركز الافريقي الجامعي

إفريقيا والتصوف: الأبعاد الروحية والاجتماعية والتنموية

تُجسِّد قارة إفريقيا نموذجًا فريدًا للتنوع الثقافي والديني على المستوى العالمي، حيث تتعانق فيها تيارات روحية وفكرية متنوعة، لترسم لوحةً إنسانيةً غنيةً بالألوان. ويُبرز التصوف الإسلامي نفسه كأحد أبرز العناصر التي تشكّل ملامح هذا التنوع، إذ مثّل عبر العصور قوةً ديناميكيةً ساهمت في تشكيل الهوية الروحية والاجتماعية للقارة. فالتصوف لم يكن مجرد ممارسةٍ دينيةٍ فردية، بل تحوّل إلى ظاهرةٍ اجتماعيةٍ وثقافيةٍ أثرت بعمق في نسيج المجتمعات الإفريقية، وعملت على تعزيز قيم التسامح والسلام والعدالة، كما أسهمت في بناء جسور التواصل بين الشعوب.

لقد أدت الطرق الصوفية دورًا محوريًا في نقل المعارف الدينية والروحية، وتشكيل الوعي الجمعي، بل وتجاوزت ذلك إلى المشاركة في بناء الكيانات السياسية والاجتماعية. فمنذ ظهور التصوف في إفريقيا، أصبح ركيزةً أساسيةً في ترسيخ السلم الاجتماعي، وتعزيز التماسك بين الأفراد والجماعات، حيث عمل على تجاوز الانقسامات العرقية والدينية، وخلق مساحاتٍ للحوار والتعايش. كما كانت للطرق الصوفية إسهاماتٌ بارزةٌ في مواجهة التحديات الاجتماعية والاقتصادية، إذ قدمت حلولًا عمليةً مستمدةً من قيمها الروحية والإنسانية.

DEMOCRATIC ARABIC CENTER
Germany: Berlin 10315 Gensinger- Str: 112
http://democraticac.de
TEL: 0049-CODE
030-89005468/030-898999419/030-57348845
MOBILTELEFON: 0049174274278717

ISBN 9 783689 291273

DEMOCRATICAC.DE

إفريقيا والتصوف: الأبعاد الروحية والاجتماعية والتنموية

Africa and Sufism: Spiritual, Social, and Developmental Dimensions

المركز الجامعي للدراسات والبحوث الافريقية
CENTRE UNIVERSITAIRE DES ETUDES ET RECHERCHES AFRICAINES

إفريقيا والتصوف: الأبعاد الروحية والاجتماعية والتنموية

Africa and Sufism: Spiritual, Social, and Developmental Dimensions

الإشراف والتحرير

Supervision and Editing

د. وسام شهير
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة
المملكة المغربية
Dr. **Ouissam CHAHIR**
Faculty of Arts and Humanities, Oujda
Kingdom of Morocco

د. سعيد الاشعري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة
المملكة المغربية
Dr. **Said AL ACHARI**
Faculty of Arts and Humanities, Oujda
Kingdom of Morocco

كتاب جماعي دولي محكّم

إفريقيا والتصوف: الأبعاد الروحية والاجتماعية والتنموية

إشـــراف وتحريـــر

د. وســـــام شهيـــــر د. سعيـــــد الاشعـــري

تأليـــف

مجموعة من الباحثين

الـــــنـــــاشـــــر

المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية، برلين - ألمانيا

Democratic Arab Center For Strategic, Political & Economic Studies, Berlin - Germany

رئيس المركز الديمقراطي العربي، برلين - ألمانيا

أ. عمار شرعان

مدير إدارة النشر، المركز الديمقراطي العربي، برلين - ألمانيا

د. أحمد بوهكو

رقم تسجيل الكتاب

ISBN: 9783689291273

الطبعة الأولى _ مارس 2025

جميع حقوق الطبع محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق خطي من الناشر

DEMOCRATIC ARABIC CENTER

Germany: Berlin 10315 Censinger- Str: 112

https://democraticac.de/ book@democraticac.de

Tel: (0049 - code Germany)

030-89005468 / 030-898999419 / 030-57348845

MOBILTELEFON: 0049174274278717

اللجنة العلمية

- **د. جمال الدين السراج** (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة).
- **د. فريد أمعضشو** (مركز تكوين مفتشي التعليم، الرباط).
- **د. عبد الله بوغوتة** (المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة).
- **د. حاجي البكاي** (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة).
- **دة. سميرة حيدا** (المدرسة العليا للتربية والتكوين، جامعة محمد الأول، وجدة).
- **د. إبراهيم عمري** (الكلية متعددة التخصصات بتازة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس).
- **د. وسام شهير** (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة).
- **د. هشام كزوط** (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة).
- **د. بن الهداج محمد** (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة).
- **د. محمد بوشنتوف** (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة).
- **د. يوسف ماحي** (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة).
- **د. الطاهر قدوري** (المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة).
- **د. كمال بورمصان** (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب).
- **د. أرديف سعيد**)المدرسة العليا للتربية والتكوين، جامعة محمد الأول، وجدة).
- **د. كموني عبد الله** (كلية العلوم القانونية والسياسية، جامعة محمد الأول، سطات).
- **د. بالعربي صلاح الدين** (كلية العلوم، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس).
- **د. سعيد الاشعري** (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة).
- **د. محمد بودشيش** (الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة).
- **د. محمد بوغوتة** (الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة).
- **د. عبد المجيد بوفرعة** (الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة).
- **دة. صارة اضوالي** (الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة).
- **د. رشيد لاركو** (الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة).
- **د. رشيد الخلوقي** (الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة.(
- **د. عبد الكريم العوني** (الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة).
- **د. نجيب علالي** (المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة).
- **د. محمد علي الدراوي** (المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة).
- **د. بيطاري عبد القادر** (المعهد الجامعي للدراسات الإفريقية والأورومتوسطية والإيبيروأمريكية بجامعة محمد الخامس، الرباط).

المحتويات

تقديم	10-7
الفصل الأول **الطرق الصوفية وإسهاماتها بين الدعوة والتجديد في نيجيريا** أحمد غربا / عمر محمد تكر / عبد الأعلى أحمد عبد الرحمن جامعة الفدرالية كاشيري (نيجيريا).	34-11
الفصل الثاني **الاستثمار السياسي في التصوف ورهانات القوة الناعمة المغربية في إفريقيا** حميد أوفقير جامعة ابن زهر، أكادير (لمغرب).	60-35
الفصل الثالث **دور الدين في سيرورة الاندماج الاجتماعي لمهاجري جنوب الصحراء بالمغرب -المهاجرون السينغاليون بمدينة إنزكان أنموذجا-** رشيد تعبدانت جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، (المغرب).	114-61
الفصل الرابع **مظاهر إشعاع الزوايا الكنتية بالمغرب خلال القرنين 18م و19م وأدوارها** بويزكارن هشام جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس (المغرب).	146-115

تقديم

إفريقيا والتصوف: الأبعاد الروحية والاجتماعية والتنموية

تُعدّ قارة إفريقيا واحدة من أكثر المناطق تنوعًا ثقافيًا ودينيًا على مستوى العالم، حيث تتقاطع فيها شرائع وطرائق روحانية شتى، يُعتبر التصوف الإسلامي أحد أبرز ملامح هذا التنوع. على مر العصور، أدى التصوف دورًا محوريًا في صياغة الهوية الروحية والاجتماعية للقارة، وأسهم في تعزيز الروابط بين المجتمعات الإفريقية، ونشر قيم التسامح، والسلام، والعدالة. كما أن الطرق الصوفية كانت بمثابة قنوات لنقل المعارف الدينية، وبناء الوعي الجماعي، ووسيلة من وسائل بناء الدولة والمجتمع.

منذ بداياته في إفريقيا، تبوأ التصوف دورًا اجتماعيًا بارزًا في العديد من الدول الإفريقية، حيث أسهم في ترسيخ قيم التسامح وتوفير السلم الاجتماعي. وكانت للطرق الصوفية دور كبير في محاربة التفرقة، وتعزيز التضامن بين الأفراد، كما أسهمت في إيجاد حلول للعديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية. علاوة على ذلك، ساهم التصوف في تطوير التعليم التقليدي، من خلال إنشاء مدارس ومراكز تعليمية تركز على نشر المعرفة الدينية والمفاهيم الإنسانية.

تواجه إفريقيا اليوم تحديات عميقة على عدة أصعدة، منها ما يتعلق بالأزمات الاجتماعية، والصراعات المسلحة، فضلاً عن التحديات الاقتصادية التي تؤثر على رفاهية شعوبها. في ظل هذه السياقات الصعبة، يظهر التصوف كقوة ناعمة قادرة على التأثير في المجتمعات الإفريقية بطرق هادئة، من خلال ترويج ثقافة التسامح والتعايش السلمي. هذا التصوف، الذي يعكس قوة روحية هائلة، أصبح الآن أداة فعالة للتعامل مع التطرف الديني، كما يؤدي أيضا دورًا في تعزيز التنمية البشرية، خاصة عبر المبادرات الاجتماعية والاقتصادية التي تحرص على تحسين ظروف الحياة للفئات الهشة في المجتمعات الإفريقية.

إن هذا الكتاب الجماعي، الذي يتناول أبعاد التصوف في إفريقيا، يأتي في وقت بالغ الأهمية، إذ يسلط الضوء على الدور الحيوي للتصوف في إرساء أسس الاستقرار الاجتماعي والتنموي في القارة. كما يُعد بمثابة نافذة تطل على العلاقات التاريخية والثقافية العميقة التي جمعت المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء، مستكشفًا هذه الروابط من خلال عدسة التصوف الثرية.

يحتوي هذا الكتاب الجماعي على مجموعة من المقالات المتنوعة التي تغوص في أعماق تاريخ التصوف في إفريقيا، وتسلط الضوء على دوره الفاعل في تشكيل الهويات الثقافية والاجتماعية، كما تكشف عن إسهاماته البارزة في تعزيز مسارات التنمية البشرية. يقدم هذا المؤلف فرصة ثمينة للباحثين والمهتمين بالدراسات الإفريقية والتصوف للمشاركة في إثراء النقاش حول هذه الظاهرة الروحية العميقة، التي تشكل جزءًا لا يتجزأ من النسيج الثقافي والاجتماعي الإفريقي. وقد جاءت هذه المقالات وفق الترتيب التالي:

- "الطرق الصوفية وإسهاماتها بين الدعوة والتجديد في نيجيريا": تتناول هذه المقالة دور الطرق الصوفية في نيجيريا في نشر الدعوة الإسلامية وتجديد المفاهيم الروحية والاجتماعية في المجتمع النيجيري.
- "الاستثمار السياسي في التصوف ورهانات القوة الناعمة المغربية في إفريقيا": تناقش المقالة كيفية استثمار المغرب في التصوف كأداة قوة ناعمة لتعزيز علاقاته مع دول إفريقيا، وكيفية توظيف هذه العلاقات لتحقيق أهداف سياسية وإستراتيجية في القارة.
- "دور الدين في سيرورة الاندماج الاجتماعي لمهاجري جنوب الصحراء بالمغرب - المهاجرون السينغاليون بمدينة إنزكان أنموذجا": تستعرض المقالة دور التصوف في تسهيل اندماج المهاجرين من دول جنوب الصحراء في المجتمع المغربي، مع التركيز على تجربة المهاجرين السينغاليين في مدينة إنزكان.
- "مظاهر إشعاع الزوايا الكنتية بالمغرب خلال القرنين 18م و19م وأدوارها": تتناول هذا المقالة تأثير الزوايا الكنتية في المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مستعرضًة أدوارها في نشر الثقافة الصوفية وتوحيد المجتمع في فترات الاضطراب.

من خلال هذه المقالات، يقدم الكتاب الجماعي دراسة شاملة ومعمقة للتصوف في إفريقيا، ويكشف عن تأثيراته الاجتماعية والثقافية والتنموية. كما يفتح الباب للنقاش حول كيفية توظيف التصوف لمواجهة التحديات المعاصرة التي تواجه القارة.

ختاما، نأمل أن يشكل هذا العمل إضافة هامة في مجال الدراسات الإفريقية، وأن يسهم في تسليط الضوء على الأبعاد الروحية والاجتماعية والتنموية للتصوف في قارة إفريقيا. كما نطمح أن يكون هذا الكتاب مرجعًا أساسيًا للباحثين والمهتمين بفهم أعمق للظواهر الدينية والروحانية الإفريقية، ويُعزز من مكانة التصوف كعنصر محوري في تعزيز السلام والتنمية البشرية في القارة.

د. سعيد الاشعري

أستاذ محاضر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة

المملكة المغربية

الفصل الأول

الطرق الصوفية وإسهاماتها بين الدعوة والتجديد في نيجيريا

Contributions of Sufi Orders Between Preaching and Religious Reforms in Nigeria

أحمد غربا

Department of Arts and Social Science Education
Federal University of Kashere, Gombe State (Nigeria)

عمر محمد تكر

قسم الآداب، شعبة اللغة العربية وآدابها

طالب دكتوراه في الأدب العربي النيجيري، الجامعة الفدرالية كاشيري (نيجيريا)

عبد الأعلى أحمد عبد الرحمن

قسم الآداب، شعبة اللغة العربية وآدابها

طالب دكتوراه في الأدب العربي النيجيري، الجامعة الفدرالية كاشيري (نيجيريا)

الملخص:

يهدف هذا البحث تسليط الضوء على بعض الإسهامات التي قدمتها الطرق الصوفية التابعة للطريقتين التيجانية والقادرية في الدعوة إلى الإصلاح والتجديد الديني في نيجيريا، وخاصة في الشمال والجنوب، كما يتتبع هذا البحث العوامل التي ساعدت هذه الطرق في نشر الدعوة والوعي الإسلامي في أرض نيجيريا، كما سلط الضوء على الدور الذي لعبه علماء هذه الطرق في

إصدار إنتاجاتهم ومؤلفاتهم الدينية والأدبية، حيث ساهموا في إنشاء المدارس الدينية والمعاهد العلمية المختلفة، مما ساعد في تنمية الوعي الإسلامي في نفوس الناس، كما أضاف إلى جمال وبهجة الإسلام في كثير من جوانبه، وتحول عدد كبير من المسيحيين والوثنيين إلى الإسلام عن طريق هذه الطرق الصوفية، وقد استخدم الباحث المنهج التاريخي لأنه مناسب لطبيعة الدراسة، كما توصلت الدراسة إلى أن الحركات الصوفية الإسلامية لها فضل لا ينكره منصف في نيجيريا، وخاصة في نشر الدين الإسلامي، ولا ينكر أحد فضلها في إصلاح الأخلاق، وإثراء الفكر الإسلامي بالحكمة والمعرفة، كما لقد انضم إلى صفوف الصوفية عبر القرون عدد لا يحصى من العلماء ولا يمكن استبعادهم من حسابات علماء الإسلام.

الكلمات المفتاحية: صوفية، تجانية، قادرية، وعي، نيجيريا.

ABSTRACT

This paper aims to highlight some of the contributions made by the Sufi orders affiliated with the Tijjaniya and the Qa'diriya order in calling for religious reform and renewal in Nigeria, especially in the northern and southern part of Nigeria. also this paper traces the factors that helped these orders in spreading the call and Islamic awareness in Nigeria, as it highlighted some of the religious and literary works of these scholars. as well as their contributions to the establishment of religious schools and various scientific institutes, which helped in developing Islamic awareness among people, as it added to the beauty and genuineness of Islam in many aspects. which led a large number of Christians and pagans to convert to Islam. The researcher used the historical approach to suit the nature of the study. The study also concluded that Islamic Sufism movements have a virtue that no

person in Nigeria can deny, especially in spreading the Islamic religion, just as no one denies their merit in reforming morals and enriching Islamic thought with wisdom.

Keywords: *Sufism, Tijjaniya, Qadiriyya, Awareness*, Nigeria.

المقدمة:

من الصعب جداً أن نذكر متى بدأ انتشار اللغة العربية في أفريقيا عموماً وفي نيجيريا خصوصاً، لكن بعض المصادر تذكر أن التجار من المغرب ومصر كانوا يرتادون الأسواق الرئيسية في أفريقيا وخاصة الغرب في العقود الأخيرة من القرن السابع الميلادي الموافق للقرن الأول الهجري، ومن الطبيعي أن ينقل هؤلاء التجار لغتهم إلى القارة، وهذا في غربها، ولما كان للحج دور كبير في نقل اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى القارة، كان بعض الحجاج يمكثون في الحجاز بعد الحج للدراسة، واكتساب المعارف والمعلومات، ثم يعودون إلى بلادهم لنشر المعارف التي اكتسبوها في الحجاز، ومعهم بعض الكتب الإسلامية والعربية، وكان بعض الأمراء والملوك الأفارقة عندما يؤدون الحج يأتون ببعض العلماء إلى بلادهم لتعليم الإسلام واللغة العربية، وكانوا يأتون معهم كتب العلوم الإسلامية والعربية، وبهذه الطرق وصلت كتب كثيرة إلى أرض أفريقيا وخاصة الغرب؛ مما ساعد في انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية. وأصبحت اللغة العربية لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية، وأصبح الخط العربي هو الخط الذي كتبت به أشهر اللغات الأفريقية، كالهاوسا والفولاني والسواحيلي والولوف. وأصبحت المنطقة مكاناً للحضارة والتقدم العظيم بفضل الإسلام ولغته. سرعان ما شكل الإسلام

عادات السكان وطور أحوالهم حتى أصبح مستوى الفكر والثقافة يضاهي نظيره، أو يفوقه في البلدان المعاصرة لتلك الفترة في أوروبا.[1]

جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة العربية والإسلامية:

لقد لعبت الممالك والعواصم والمراكز العلمية التي اشتهرت في غرب أفريقيا، مثل تمبكتو وجينيه وأغاديز وكينو وكيتشانا، دوراً كبيراً في نشر الثقافة العربية والإسلامية في المنطقة. وبلغت الثقافة العربية والإسلامية ذروة ازدهارها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، في عهد إمبراطورية سونغهاي الإسلامية، التي اشتهرت بكثرة علمائها وأعمالهم العلمية التي ساهمت بشكل كبير في نشر الثقافة الإسلامية في غرب القارة وخارجها. وقد امتلأت مدينة تمبكتو ـ العاصمة الثقافية لإمبراطورية سونغهاي ـ بالعديد من العلماء المشهورين الذين كتبوا في مختلف العلوم الدينية واللغوية والتاريخية. ومن أشهر علمائها الشيخ أحمد بابا التمبكتي، ولم يتمتع عالم في تمبكتو بسعة علمه وشهرته. فقد كان عالماً موسوعياً ومؤرخاً وعالماً في الشريعة ومتمكناً في اللغة والأدب العربي. يذكر تراجمته أنه ألف أكثر من أربعين كتاباً.[2] درس في الدولة الصنغية وخارجها، في مدينة مراكش المغربية حين نفي إليها، وحضر دروسه مئات من طلبة العلم في مراكش وخارجها. ومن أشهر مؤلفاته: كتاب (نيل الابتهاج بتطريز الديباج)، وهو

[1]- Ibrahim Tarkhan (1968), Islam and the Arabic Language in Western and Central Sudan, Omdurman Magazine, No. 2, pp: 19.

[2]- Fath al-Shukur (1991) in the knowledge of the notable scholars of al-Takrur, by al-Walati, Dar al-Gharb al-Islami, Beirut, 1st edition, pp: 36.

كتاب ذيل به كتاب ابن فرحون المالكي (الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب)، وله شرح على خلاصة خليل وهو كتاب يسمى(كفاية المحتاج و معراج الصعود) وغيرها من كتب أخرى. ومن العلماء الذين ساهموا في نشر الثقافة العربية الإسلامية في غرب السودان في عهد الدولة السونغي المؤرخ الشهير الشيخ محمود بن كعت الكرماني، مؤلف كتاب (تاريخ الفتاش)، وهو كتاب يؤرخ للدولة السونغي وما سبقها من الدول مثل دولة مالي، وكان المؤلف أحد وزراء الحاج أسكيا محمد توري، وأحد الذين رافقوه في رحلة الحج الشهيرة، ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله السعدي، مؤلف(تاريخ السودان)، وهو كتاب يؤرخ للدولة السونغي الإسلامية، وفي أوج توسعها امتدت الدولة السونغية إلى منطقة أير في النيجر، وكانت أشهر مدن أير في تلك الفترة مدينة أغاديس وتيجدا، والتي ساهمت بشكل كبير في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في منطقة أير وخارجها، وذلك لكثرة علمائها ومؤلفاتهم العلمية. بدأت النهضة العلمية فيها بقدوم الشيخ عبد الكريم المغيلي سنة 1479م، وافتتاحه مدرسة قرآنية للأطفال، وأخرى للكبار، لتدريس العلوم الدينية واللغة العربية، وبقي فيها فترة قبل أن يستكمل رحلته إلى كتشانة وكانو. وقد تتلمذ عليه كثير من الناس، ومن أشهر تلامذته الذين نبغوا وساهموا في نشر الثقافة العربية الإسلامية الشيخ العاقب بن عبد الله الأنسماني الأغدسي. وقد كتب عنه الشيخ أحمد بابا التمبكتي في نيل الابتهاج قائلاً: "فقيه فاضل، واضح الفهم، حاد الذهن، ثاقب الذهن، مشغول بالعلم، حاد اللسان، له شروح، أفضلها شرحه على قول خليل: (وخصصت نية

الحالف) .[3] وقد اختصر الشيخ أحمد بابا هذا الشرح وسماه (تنبيه الواقف على تحرير) وخصصت فيه نية الحالف، وله جزء بعنوان (وجوب صلاة الجمعة في قرية أنوسمان) كتبه رداً على من يرى عدم صحة قرية أنوسمان، وتقام فيها صلاة الجمعة لأن عدد سكانها لا يسمح بذلك، ويرى الشيخ أن تقام فيها صلاة الجمعة بالعدد الموجود في القرية .قال الشيخ أحمد بابا :فبعثوا به أي الكتاب إلى علماء مصر فأقروه.[4] أي أقروا الشيخ العاقب فيما ذهب إليه من جواز إقامة صلاة الجمعة في قرية أنوسمان. وله أيضاً أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير، وفيها أجاب على أسئلة السلطان الحاج أسكيا محمد، وهذه المعلومات القليلة عن شخصية العاقب تشهد على المكانة التي كان يتمتع بها بين علماء وسياسيين عصره. ومن العلماء الأفارقة الذين أسهموا في الثقافة العربية الإسلامية: الشيخ أحمد فورتو البرنوي، الذي كان معاصراً للسلطان إدريس علوما إمبراطور برنو من1570م-1603م، وكان الشيخ أحمد فورتو أمين سره وإمام صلاته. وله كتاب عن تاريخ برنو، وكتاب آخر عن حروب السلطان إدريس علوما وسيرته. والكتابان من المصادر المهمة عن إمبراطورية كانم برنو في القرن السادس عشر الميلادي. وقد ترجم الكتابين إلى الإنجليزية بواسطة ر.م.بالمر ,R.M.Palmer. ونُشر عام1926م.[5]

ومن أشهر علماء السودان الغربي في القرن الثامن عشر الميلادي على الصعيد العالمي؛ الشيخ محمد الكثناوي المتوفى بالقاهرة عام1742م، وقد

3- Ahmed Saeed Gladinshi (1990), The Arabic Language and Literature Movement in Nigeria, Dar Al-Maaref edition, pp:271.

4- Ahmed Saeed Gladinshi (1990), pp: 266.

5- Islamic Civilization in Niger, published by ISESCO in 1994, pp: 105.

اشتهر هذا العالم عند علماء الشرق بفضل السيرة التي كتبها عنه عبد الرحمن الجبرتي في كتابه (عجائب الآثار في التراجم والأخبار)، حيث قال عنه: وحج سنة1142هـ الموافقة لسنة1729م، وجاور بمكة، وابتدأ هناك بتأليف (الدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم في علم الطلاسم والنجوم)، وهو كتاب حافل ...ومن تآليفه كتاب (بهجة الآفاق وإيضاح اللبس والأغلاق في علم الحروف والأوفاق)... وله منظومة في علم المنطق سماها منح القدوس، وشرحها شرحاً عظيماً سماه إزالة العبوس عن وجه منح القدوس... ومن تآليفه أيضا بلوغ الأرب من كلام العرب في علم النحو، وله غير ذلك.[6]

تلقى حسن الجبرتي علوماً مختلفة عن محمد الكشناوي، وترجمة ابنه للشيخ محمد الكشناوي توضح لنا مكانة هذا العالم الجليل.

لمحة تاريخية عن تطور اللغة العربية في نيجيريا:

لم ينكر أحد أن اللغة العربية ازدادت قوة ورسوخاً في أرض نيجيريا مع ظهور الإسلام منذ القدم، من خلال التجارة والدعاة وغيرهما، وقام الشيخ عثمان بن فودي بتجديد هذا الدين الحنيف، حيث لعب دوراً فعالاً من خلال تجديده ورفع لواء هذه اللغة العربية. وأشار هارون2015م في مقاله: لقد وصلها التجار العرب منذ القديم فكانت هناك علاقة تجارية بين العرب والنيجيريين وخاصة الشماليين مما ساعد على انتشار اللغة العربية في شمال نيجيريا، وأعظم من ذلك ما سجله التاريخ من هجرة بعض القبائل العربية

[6]-Abdul Rahman bin Hassan Al-Jabarti (2010) History of Al-Jabarti - Named - Wonders of Athar in Biographies and News, Tenth Edition, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, pp: 210.

إلى مملكة كانم برنو وهي الممالك القديمة الواقعة إلى الشرق من برنو الحالية في منطقة بحيرة تشاد وهي من أقدم الممالك وأكبرها في غرب ووسط أفريقيا . ويعود تاريخ التعليم العربي في نيجيريا إلى زمن تغلغل الإسلام في هذه البلاد -نيجيريا -وقبل ظهور الشيخ عثمان بن فوديو، وقد ساهم في هذا المجال العديد من المغاربة الذين مروا بها في طريقهم إلى البلاد أو منها، ومن أبرزهم محمد بن عبد الكريم المغيلي وأحمد بابا التمبكتي وغيرهما .ومما يدل على ما ذكرناه من كون اللغة العربية جزءاً لا يتجزأ من الثقافة النيجيرية قيام دولة صكتو بقيادة الشيخ عثمان بن فوديو سنة1804م، وقد ضمت هذه الدولة الفوديه كبار العلماء والمثقفين، حيث لم يكن الشيخ إلا داعية جدد الإسلام في بلاد الهوسا، وقد تشبع وزراء الدولة وحكامها وأمراؤها بالثقافة العربية الإسلامية، وتركوا تراثاً عربياً ضخماً بقي الكثير منه إلى يومنا هذا مخطوطاً لم يطبع ولم يدرسه الباحثون بدلا من التحليل.[7]

الطرق الصوفية والدعوة الإسلامية في نيجيريا:

لقد صحبت التصوف وطرقه الدعوة الإسلامية منذ القرن الثالث الهجري، وهو من القرون الأولى التي عاش فيها السلف الصالح. ولم تمنع هذه الطرق الإسلام من الازدهار، بل كان رجال الطرق قادة الحضارة والعمران، وزعماء القوافل، ومؤسسي الدول، ولو كان الأمر في اتجاه واحد، ففي

[7]- Harun Hadijia (2010) Reflections on Nigerian educational policy towards its position in teaching Arabic language, Al-Qalam Journal in Arabic Language and Literature, North-West University, pp: 56.

تلك الأيام كان الله يتناوب بين الناس من أيام النبي والصحابة والتابعين، وقصصهم مذكورة ومشهورة في كتب التاريخ.[8]

ومن تأمل جيداً وجد أن لحركات التصوف الإسلامي فضلاً لا ينكره منصف، وهو فضل الصوفية الصالحين في نشر الإسلام في مختلف البلدان، كما لا ينكر فضلهم في إصلاح الأخلاق، وإثراء الفكر الإسلامي بالحكمة والمعرفة، ومحاربة النفس والهوى والشيطان. وقد انضم إلى قافلة الصوفية عبر القرون عدد لا يحصى من الشخصيات، ولا يمكن استثناء هؤلاء من حساب علماء الإسلام، وهناك العديد من علماء العصر الحديث الذين نشأوا على كنف الصوفية.[9] ومن وسائل انتشار الإسلام في غرب أفريقيا عامة، وفي نيجيريا خاصة، نقل الدعوة من قرية إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر، وقد حمل علماء نيجيريا على أنفسهم أعباء الدعوة الإسلامية لأنهم رأوا أنها فرض عليهم، فترك بعضهم بلده إلى بلد آخر بدعوى نصرة الدين الإسلامي ونشره. ويمكن تقسيم الدعاة في نيجيريا إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يعقدون جلساتهم الدعوية في مساجدهم ويلقونها على جماعتهم كل يوم جمعة بعد صلاة الصبح إلى الفجر أو كل ليلة جمعة بعد صلاة العشاء.

[8] - Adam Abdullah Al-Ilori (1978) Islam in Nigeria and Sheikh Uthman bin Fodio Al-Fulani, Publications of the Arab-Islamic Education Center in Agighi, 2nd edition, Lagos, pp: 123.

[9] - Adam Abdullah Al-Ilori (1978) pp: 200.

القسم الثاني: من يخصصون يوماً أو ليلة معينة لخطبتهم في الساحات العامة التي يحضرها الرجال والنساء ويقضون فيها ساعات.

القسم الثالث: من يتطوعون بدعوتهم وينتقلون من بلد إلى آخر، ويعقدون لها جلسات مهمة يقاتلون فيها الكفار والمشركين ويذكرون المؤمنين. وهؤلاء كان لهم الفضل في جلب الناس إلى دين الله أفواجاً وفرادى. وأشهرهم المعروفين في بلاد اليوروبا الشيخ سعد النفوي الإلوري الذي كان يخترق المدن والقرى بخطبه حتى دخل في الإسلام نحو مائة ألف كافر في بلاد اليوروبا والداهومي. [10]

واشتهر بكلمات كان يرددها وهي:"كيف يفلح من لا يتعلم ولا يسأل العلماء؟"، وتقول رواية أخرى أن الذين أسلموا على يديه بلغوا نصف مليون. لم يترك بلداً مهماً في اليوروبا إلا ودخله ووعظ أهله. أطلق عليه بعض الناس المهدي، فأنكرهم وقال إنه مجرد واعظ وليس المهدي المنتظر. وأخيراً وافق على قبول رتبة أمير الواعظين التي منحها له أمير إلورين المدعو شعيب لآثار وعظه وإرشاده، ليس في مدينة إلورين فحسب، بل في كل بلاد نيجيريا والدول المجاورة. توفاه الله سنة1935م. [11] ابتكر الوعاظ طريقة الوعظ بالشعر الأجنبي بألحان يستمتع بها أهل البلاد ويتأثرون بها ولا ينسونها، ويسمونها "واكا" باللغتين الهوسية واليوربية. وقد اعتاد بعضهم على ذلك حتى نما لديهم موهبة مكنتهم من تفسير كل آية من آيات القرآن الكريم. [12]

[10]- Adam Abdullah Al-Ilori (1978) pp: 143.

[11]- Adam Abdullah Al-Ilori (1979), Guiding the Call and Preachers in Nigeria and West Africa, Al-Amana Press, Cairo, pp: 45.

[12]- Adam Abdullah Al-Ilori (1978) pp: 142.

إن أعظم أهداف هؤلاء العلماء والدعاة تنحصر في القرارات التي أرسلوها إلى الحكومة الفيدرالية والشعب النيجيري، على النحو التالي: العمل بالتشريع الإسلامي، والاعتراف بالتاريخ الإسلامي والأعياد... وهذه النقاط من بين القرارات التي أصدرها مجلس العلماء وطالب الحكومة بتنفيذها. [13]

لقد رافقت التصوف وطرقه طريق الدعوة الإسلامية منذ نشأتها إلى اليوم، ولم تمنع هذه الطرق بأدعيتها وأذكارها المتنوعة الإسلام من الازدهار والانتشار في جميع أنحاء أفريقيا، بل أضافت إلى جمال الإسلام وبهجته في كثير من جوانبه. وقد اعتنق الإسلام عن طريق الطرق الصوفية عدد كبير من المسيحيين والوثنيين. ومن أهم هذه الطرق التي نالت القبول والقبول بين أهل نيجيريا الطريقة التيجانية التي أسسها الشيخ أحمد التيجاني رحمه الله، وكان نشاط الطرق الصوفية في نشر الإسلام من العوامل المهمة في انتشار الإسلام في مختلف أنحاء أفريقيا، فهم كغيرهم من الدعاة والتجار والمعلمين، كانت دعوتهم تقوم على الهداية وحب الجار والتسامح وكل وسائل التشجيع على نشر الدين وابتغاء مرضاة الله وحسن الجزاء، وذلك بإقامة المساجد وفتح المدارس والزوايا والمصاهرة مع أهل البلاد التي يرتادونها أو يستقرون فيها. [14] وقد انتشرت الطرق الصوفية في غرب أفريقيا على أيدي شيوخ الصوفية، وكانت أكبر هذه الطرق التي انتشرت في نيجيريا ثلاث طرق هي القادرية والتيجانية والسنوسية.

[13]- Musa Suleiman (2000) Islamic Civilization in Nigeria, university press, Ibadan, 1st ed, pp: 9.

[14]- Saleh Musa Ibrahim (1987), Al-Murshid fi Islamic History, Al-Hikma Company Press, Kano, pp: 47.

مفهوم التصوف والصوفية:

التصوف عقيدة تدعو إلى تطهير النفس وتهذيبها والتقرب إلى الله بالعبادات التطوعية بعد إتمام الفرائض لكسب محبة الله. [15] أما الصوفية فهم العابدون الزاهدون المعروفون بالتمسك بالذكر والدعاء، والإعراض عن زينة الدنيا وزخارفها، والزهد في ملذاتها وشهواتها. وكانت الطريقة الصوفية رابطة روحية اتخذت العبادة والزهد وسيلة لإصلاح النفس والمجتمع، وممارسة الرياضة التي ترفع النفس إلى مرتبة الاتصال الروحي بالملائكة الأعلى، بحيث يصبح كل ما سوى الله باطلاً تافهاً في نظرهم. [16]

وإذا كان للصوفية بعض السلبيات في البلدان الأخرى، فإن لها إيجابيات في غرب أفريقيا عموماً، وفي نيجيريا خصوصاً، قبل الاستعمار البريطاني وطوال أيامه هناك. ولهؤلاء الصوفية جهود ملموسة في نشر الإسلام، ولهم تأثير كبير في المجتمع النيجيري. فلولا الطريقة الصوفية لما استطاع عبد الله بن ياسين إقامة دولة المرابطين، ولما استطاع الشيخ عثمان بن فودي الفولاني تجديد قوة الإسلام في نيجيريا.

الطريقة الصوفية ودوافعها بين أهل نيجيريا:

الطريقة الصوفية عبارة عن رابطة روحية تضم أفراداً وجماعات من الناس تحت قيادة واحدة يستمعون إلى هذه القيادة ويطيعونها في السراء

[15]- Adam Abdullah Al-Ilori (1990) An article presented by the Sheikh in the Sufi symposium on the occasion of the fortieth anniversary of the founding of the Arab-Islamic Education Center entitled: The Role of Sufism and Sufism, pp: 7.

[16]- Adam Abdullah Al-Ilori (1978) pp: 41.

والضراء. [17] وقد اعتنق أغلب المسلمين النيجيريين إحدى الطرق الصوفية كالقادرية والتيجانية والسنوسية. وكانت أسباب التزامهم بهذه الأوامر وأذكارها على النحو التالي:

أولاً: اعتقادهم أن لها تأثيراً كبيراً في إجابة دعائهم أو أن الولي الذي ينتمون إليه قد نال درجة الولاية من هذه الأذكار.

ثانياً: طبيعة التدين في نفوس كثير منهم، فلم تكتف نفوسهم بالاكتفاء بالواجبات دون إضافة الواجبات الخيرية إليها، باعتبار الواجبات رأس مال، والواجبات النوافل أرباح تؤخذ منهم لإكمال الواجبات إذا خالفوها.

ثالثاً: تشدد العلماء في ضرورة الأخذ بتجويد تلاوة القرآن، فكان العوام ينفرون من تلاوته إلى التمسك بالأدعية التي ينالون فيها الأجر والثواب دون تلاوة القرآن، فيكونون آثمين إذا لم يتلو القرآن كما ينبغي. [18]

هذه النقاط الأساسية هي التي تدفع العديد من المسلمين النيجيريين إلى تبني إحدى الطرق الصوفية السائدة في البلاد.

خصائص شيوخ الصوفية:

توجد في نيجيريا زعماء صوفية بلغوا مستوى النضج العلمي والفكر الأدبي في الثقافة العربية الإسلامية، وتأثروا بهم بشدة في المجتمع النيجيري من خلال علمهم وأدبهم وتقواهم. ومن أبرز خصائص هؤلاء الصوفيين في نضالهم الإسلامي ما يلي:

[17]- Adam Abdullah Al-Ilori (1978) pp: 78.
[18]- Adam Abdullah Al-Ilori (1978) pp: 90.

النضج العلمي: يتجلى التألق العلمي في العديد من شيوخ الصوفية في نيجيريا، حيث إن أغلب من فتحوا معاهد علمية في بيوتهم منذ قرون، ينتمي أغلبهم إن لم يكن جميعهم إلى إحدى الطرق الصوفية الثلاث القديرية والتيجانية والسنوسية. وهؤلاء الشيوخ هم الأكثر حرصاً على طلب العلم، بغض النظر عن علومهم واتجاهاتهم، ولهم أكبر عدد من الأتباع والتأثير في المجتمع. ويقومون بتدريس محبي العلم على اختلاف جنسياتهم وألوانهم وطبقاتهم مجاناً، وطريقة الدراسة أن يبدأ الطالب بالكتب الدينية السهلة، ثم يقرأ بعض كتب اللغة، ثم بعض كتب النحو، ثم الحساب، ثم التفسير، ثم الصرف والبلاغة، ثم التاريخ والمنطق والعروض، ويجوز للطالب أن يدرس هذه الفنون كلها على أستاذ واحد إذا كان متمكناً، ويجوز له أن يتخذ من أساتذة متعددين إذا شاء، أو ينتقل من معهد إلى آخر. [19]

وفي مقدمة هؤلاء المشايخ الموهوبين الشيخ أحمد التيجاني بن عثمان الكناوي، والشيخ الطاهر عثمان البوثي، والشيخ عبد القادر الغسوي، والشيخ يوسف عبد الله اللكوجي، وهم جميعاً من التيجانيين النيجيريين.

الإنتاج الأدبي: لا خلاف أن الفضل في الإنتاج الأدبي في مجالات الفنون العربية والإسلامية يعود إلى الصوفيين، فقد ألفوا كتباً في الفقه والأدب واللغة والعروض والتصوف تدل على قدراتهم العلمية ومواهبهم الفنية، وقد ألف بعضهم أكثر من مائتي كتاب، مثل الشيخ عبد الله بن فوديو الفولاني. [20] وأخوه عثمان المصلح والمجاهد الأعظم في غرب أفريقيا، والسلطان محمد بللو

[19]- Ali Abu Bakr (1990) Arab Culture in Nigeria from 1750 to 1960, Abdul Hafeez Al-Bassat Foundation, 1st edition, pp: 157.
[20] - Adam Abdullah Al-Ilori (1978) pp: 64.

الجد الأكبر للشهيد أحمد بللو رئيس وزراء نيجيريا الأسبق. ولو جمعت مؤلفات هؤلاء الثلاثة وحدهم لتجاوزت نحو ثلاثمائة كتاب، وكلهم من الصوفية، وكانوا من الطريقة القادرية. وأما من تميزوا عن غيرهم في مجال التأليف من التجانية، فمثلهم الشيخ أبي بكر عتيق الكثناوي الذي ألف نحو خمسين كتاباً تدور موضوعاتها حول الدراسات الإسلامية واللغة العربية والتصوف. ويقول محمد الأمين عمر في كتاب نال بها درجة الماجستير من كلية الآداب والدراسات الإسلامية بجامعة بايرو – كنو، عن الشيخ أبي بكر عتيق: "لقد كان لثقافة الشيخ العظيمة ومعرفته الواسعة واتصاله بعلماء عصره أثر كبير في حياته العلمية، فألف كتباً كثيرة في علوم مختلفة، تناول أغلبها أمور الدين واللغة العربية والتصوف، وبلغت مؤلفاته في العلوم المختلفة نحو خمسين كتاباً". [21] ومنهم الشيخ يوسف عبد الله اللكوجي التجاني الذي ألف أكثر من سبعين كتاباً تناولت موضوعاتها الأدب العربي النيجيري والأخلاق والتصوف نثراً وشعراً. ولعل من المناسب أن نذكر هنا ما قاله الدكتور موسى عبد السلام مصطفى أبيكن أحد تلامذته البارزين: "إن مؤلفات الشيخ يوسف عبد الله تعتبر من أغزر ما أنتج العلماء النيجيريين اليوم، وأكثرها ملاءمة للبيئة التي يعيش فيها، بل وأكثر ضرورة للشباب لأن موضوعاتها تشمل النقاط التالية: الأدب الإسلامي، ومدح النبي، والأخلاق والدعاء، بالإضافة إلى الخطب المنبرية، والمقالات الأدبية التي ألقيت في

[21] - Muhammad Al-Amin Omar (1996), Sheikh Abu Bakr Ateeq and his collection, The Gift of Loved Ones and Khalan, Al-Zahraa Press, Cairo, pp: 26.

الأوساط الدينية والثقافية. ومهما يكن من أمر فإن الشيخ ألف ما لا يقل عن ستين كتاباً نثراً وشعراً".[22]

وهناك شيوخ آخرون بلغوا ذروة التأليف، وكان هدفهم الأسمى ولا يزال خدمة الإنسانية عامة، ونشر الطريقة الصوفية خاصة.

حركة التجديد الديني الإسلامي في نيجيريا:

إذا ما انتقلنا إلى دولة الشيخ عثمان بن فوديو في القرن التاسع عشر الميلادي في شمال نيجيريا والدول المجاورة؛ نجد أن إسهام الأفارقة بلغ ذروته في الكتابة والتدريس والجهاد لإعلاء كلمة الله. وكان الشيخ عثمان بن فوديو من أوائل العلماء الذين جددوا في القرن التاسع عشر الميلادي في شمال نيجيريا والدول المجاورة، في عهد خلافته 1804م-1903م التي أسسها. وقد جدد الشيخ عثمان معالم الإسلام وأحيا ما ضاع بسنانه وقلمه. وتعتبر دولته من أكثر الدول الإسلامية إنتاجاً علمياً في غرب السودان، وذلك بسبب تفاني المؤسس في العلم والعبادة. أعطى الشيخ عثمان بن فديو العلم كل اهتمامه، وازدهر العلم في دولته، لأن الشيخ كان يعتقد أن العلم والإيمان لا ينفصلان، وأن الإيمان بدون العلم، لا نبالغ إذا قلنا إنه لم يزدهر في الدول الإسلامية التي سبقته كما ازدهر فيها، والدليل على ذلك انتاجه الأدبي والديني الذي لا يزال يدرس في بعض الدوائر العلمية في غرب السودان. وقد تميز باهتمام مؤسسيها وخلفائها بالعلم، وكان أكثرهم من العلماء الكبار، بخلاف

[22]- Musa Abdul Salam Mustafa Abiken (2006), Sheikh Abdullah Yusuf Al-Lakoji and his contribution to Nigerian Arabic literature, pp: 8.

من سبقوها. واللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، وكان الناس يولونها اهتماماً كبيراً، لأنها لغة الدين، ولا يمكن فهم الدين فهماً صحيحاً بدونها، فتعلموها وأتقنوها إلى أقصى حد من الكمال، حتى ظهر منهم من إذا وعظوا حسبتهم عرباً خالصين.[23] وكانت المدارس القرآنية للأطفال والحلقات العلمية للكبار كثيرة، حتى أنه من الصعب جداً معرفة عددها، لأنها لم تكن تتبع أي نظام رسمي لإحصائها، ولكننا نستطيع أن نتصور كثرتها بعدد العلماء والفقهاء الذين عاشوا في ذلك الوقت، وكان العلماء يفتحون أبواب بيوتهم على مصراعيها للتدريس واستقبال طلاب العلم، وكانوا يقيمون حلقات في المساجد لإلقاء المحاضرات، وكانوا يحرصون على تعليم القرآن الكريم، وكانوا يحرصون على تعليم العلوم الدينية والتربية واللغوية. ولا شك أن الثقافة العربية الإسلامية قد تطورت تطوراً كبيراً في تلك الفترة وكثر التأليف فيها.[24] وكان عصرهم عصر نهضة ثقافية أدبية واسعة وهو بمثابة العصر الذهبي للغة العربية وآدابها في المنطقة. بعد تبحر الشيخ عثمان في العلوم الدينية واللغوية والتربية جلس للعلم وطلابه، فكان يدرس الطلاب ويعظ الناس – العوام – ويرشدهم إلى الإسلام الصحيح، ونبذ العادات السيئة المخالفة للإسلام الصحيح ، وجعل ينتقل من قرية لأخرى مع أخيه الشيخ عبد الله بن فوديو للإرشاد، يقول الشيخ عبد الله بهذا الصدد: "أقمنا مع الشيخ نعينه على تبليغ الدين نسير لذلك شرقا وغربا يدعو الناس إلى دين الله بوعظه وقصائده العجمية ويهدم العوائد المخالفة للشرع إلى أن سرنا معه إلى بلاد كبي (kibbe)

[23]- Adam Abdullah Al-Ilori (1978) pp: 144.
[24]- Ahmed Baba of Timbukti (1990), Nail Al-Ibtihaj with the margin of the golden brocade, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, pp: 88.

فدعاهم إلى إصلاح الإيمان والإسلام والإحسان، وترك العوائد الناقضة لها فتاب كثير منهم". [25]

وجاهد من عارض الدعوة، ولما استتب الأمن وانتشر الإسلام الصحيح عاد إلى الهدف الذي فرغ نفسه له وهو العلم والعبادة والذكر، وقد انصرف الشيخ إلى العبادة والعلم في مدينة سفاوا واعتزل السياسة وأمور الحكم لأنها لم تكن من أهدافه الرئيسية، ولكنه اضطر إلى ذلك، كما أسهم في مجال التأليف الذي قد يصل إلى مائة كتاب ما بين كتب ومقالات، أشهرها:

1- إحياء السنة وإخماد البدعة، طبع بالقاهرة سنة 1962م.

2- تمييز أهل السنة.

3- توقيف المسلمين على أحكام مذاهب المجتهدين الذين كانوا من أهل السنة الموفقين.

4- سوق الأمة إلى اتباع السنة.

5- اتباع السنة وترك البدعة.

6- وثيقة الإخوان لتبيين دليل وجوب اتباع الكتاب والسنة والإجماع، طبعت بولاية كنو سنة 1988م.

7- أسانيد الفقير المعترف بالعجز والتقصير في بعض ما أخذ بالقراءة أو بالإجازة.

[25]- Ahmed Baba of Timbukti (1990), pp: 90.

وإذا انتقلنا إلى عالم السودان، أو عربي السودان الشيخ عبد الله بن فوديو شقيق عثمان بن فديو؛ نجد أن له عدة مؤلفات في مجال الشريعة والأدب منها: ضياء التأويل في معاني التنزيل، وهو كتاب في تفسير القرآن الكريم، وله أيضاً مفتاح التفسير: وهي قصيدة تزيد على سبعمائة بيت، نظم فيها علوم القرآن من كتابي الإتقان في علوم القرآن والنقاية للسيوطي، وفي مجال النحو له البحر المحيط، وهي قصيدة من أربعة آلاف وأربعمائة بيت، نظم فيها جمع الجوامع وهمع الهوامع للسيوطي، وفي الصرف له الحصن الرصين، وهي قصيدة من ألف بيت، وله ديوان شعر مشهور اسمه تزيين الورقات لما لي من الأبيات. وكذلك الشيخ محمد بللو بن عثمان بن فوديو، وله عدة مؤلفات أشهرها: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، وهو من المراجع الأساسية لتاريخ الجهاد العثماني، وأهم علماء تلك الفترة وما قبلها.

ومنهم؛ الشيخ آدم الإلوري الذي يعد من أبرز المساهمين الأفارقة في الثقافة العربية الإسلامية، لكثرة مؤلفاته وشهرتها، ولد سنة 1917م في بلدة وسا، تلقى تعليمه عن والده، فحفظ القرآن ودرس أصول الفقه المالكي، ثم سافر لطلب العلم فدرس على الشيخ صالح بن محمد الأول، والشيخ عمر بن أحمد الأبهجي، والشيخ آدم نماج الكناوي. سافر إلى مصر والتحق بالأزهر، ولكنه لم يتمكن من البقاء، فعاد إلى بلاده وتفرغ للتدريس والوعظ والتأليف منذ عام 1946م. قام الشيخ بعدة أعمال في مجال نشر الثقافة الإسلامية والعربية في نيجيريا والدول المجاورة، منها بناؤه لمركز التعليم العربي الإسلامي في أجيجي في ولاية لاجوس عام 1954م، والذي تخرج منه أكثر من عشرة آلاف طالب. أما مؤلفاته فهي كثيرة؛ ومن أشهر أعماله

المقالات والقصائد والأشعار والمناهج .ومن أشهر مؤلفاته :كتابه الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي، وهو من أوائل الكتب التي ألفت عن تاريخ المنطقة في العصر الحديث. ومن مؤلفاته في مجال الأدب: مصباح الدراسات الأدبية في ديار النيجيرية، وهو أول كتاب في المنطقة يحاول تحديد العصور الأدبية في نيجيريا. توفي الشيخ عام 1992م. [26]

ومن الأفارقة المشهورين في مجال الثقافة العربية الإسلامية في القرن الماضي الشيخ الدكتور الوزير جنيد محمد البخاري، الذي ولد عام 1906م في مدينة سكتو، بدأ تعليمه بقراءة القرآن الكريم على الشيخ عبد القادر بن أبي بكر، وبعد إتمامه القرآن الكريم درس عليه أصول الفقه المالكي، كالأخضري والعشماوي، ثم انتقل إلى الشيخ يحي بن خليل، وقرأ عليه العشرينيات ومقامات الحريري وملحة الإعراب وغيرها من الكتب اللغوية، وعرف الشيخ بأنه المرجع الرئيسي في تاريخ الخلافة السكتية، درس في مدرسة العلوم الإسلامية بسكتو، ثم عُين مستشاراً للشؤون الشرعية في مجلس الأمير، وفي عام 1948م عُين وزيراً لأمير سكتو. [27] وظل في هذا المنصب حتى وفاته سنة 1997م، وقد ترك وراءه عدة أعمال، أشهرها قصيدة -ضبط الملتقط من الأخبار المتفرقة-ويبلغ عدد أبيات هذه القصيدة ستمائة وسبعة

[26]- Abdul Baqi Shuaib Agaka (2003) Islamic Literature in the Diwan of AI-llori, 3rd edition, pp: 14.

[27]- Musa Suleiman (2000) Islamic Civilization in Nigeria, university press, Ibadan, 1st ed, pp: 30.

وثمانين بيتاً، تناول فيها موضوعات شعرية مختلفة في المدح والرثاء والوصف وغيرها.

خاتمة:

إنّ الطرق الصوفية لها دور مهم في نشر الثقافة العربية الإسلامية في نيجيريا، ولها أعلام في كل ولاية من ولايات نيجيريا كلها، تحمل راياتها بالدفاع عنها بأقلامها المتدفقة أحياناً، وفي مجالسها الوعظية المؤثرة أحياناً أخرى، فانتشر العلم والإسلام، كما ذكر الشيخ آدم عبد الله الإلوري عن هذا الأمر حين قال: "لقد عرفنا الإسلام في هذا البلد - نيجيريا - على أيدي رجال الصوفية، وتعلمنا الثقافة العربية والإسلامية من شيوخ الصوفية، وتربينا دينياً على أيدي آباء صوفيين، فلا نحب ذلك، ولا نقبل أن نرد لهم حقهم علينا بالعصيان والمعصية. ولذلك لخص الباحث ما يلي:

1- انتشر الإسلام في غرب أفريقيا على أيدي الدعاة والمعلمين الذين وهبوا أنفسهم لنشر هذا الدين بين سكان القارة، وهؤلاء الدعاة لا يمثلون جماعة أرسلتها منظمة إسلامية أو حكومة مركزية، بل كانوا يقومون بهذا العمل من باب الواجب الديني، ورغبتهم في نيل لذة العبادة، وفضلاً عن ذلك فإنهم كانوا يحرصون على نشر الدين في كل مكان، وكانوا يحرصون على نشره في سبيل الله.

2- ساهم العديد من التجار العرب والأجانب في نشر دعوة الإسلام وتجديدها، حيث ترى التاجر يتخذ التجارة وسيلة لكسب الرزق الحلال ثم يقوم برسالته، وباعتباره تاجراً يستطيع التواصل مع كافة طبقات الناس

بحكم مهنته ومن خلال هذا التواصل يستطيع أن يدعو من يرى أنهم يقبلون منه الدين الإسلامي.

3- اتسم العديد من شيوخ الطرق الصوفية في نيجيريا بالعلم والإنتاج الأدبي، فمعظم من فتحوا المعاهد العلمية في بيوتهم قبل قرون، معظمهم إن لم يكن كلهم، ينتمون إما إلى الطريقة القادرية أو التيجانية أو السنوسية، فهؤلاء المشايخ هم أشد الناس حرصاً على طلب العلم على اختلاف علومهم وميولهم، وأكثرهم أتباعاً وتأثيراً في المجتمع.

4- ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية بشكل كبير في تلك الفترة من التجديد وكثر فيها التأليف، وكان ذلك العصر عصر نهضة ثقافية وأدبية واسعة، وهو أشبه بالعصر الذهبي للغة العربية وآدابها في المنطقة. وبعد أن تعمق الشيخ عثمان في العلوم الدينية واللغوية والتربوية، جلس ليعلم هو وطلابه، فقام بتعليم الطلاب ووعظ الناس - عامة الناس - وإرشادهم إلى الإسلام الصحيح، ونبذ العادات السيئة التي تتعارض مع الإسلام الصحيح، وكان يتنقل من قرية إلى أخرى مع أخيه الشيخ عبد الله بن فديو للإرشاد.

REFERENCES

- Abdul Baqi Shuaib Agaka (2003) Islamic Literature in the Diwan of AI-llori, 3rd edition.
- Abdul Rahman bin Hassan Al-Jabarti (2010) History of Al-Jabarti – Named Wonders of Athar in Biographies and News, Tenth Edition, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.
- Adam Abdullah Al-Ilori (1978) Islam in Nigeria and Sheikh Uthman bin Fodio Al-Fulani, Publications of the Arab-Islamic Education Center in Agighi, 2nd edition, Lagos.
- Adam Abdullah Al-Ilori (1979), Guiding the Call and Preachers in Nigeria and West Africa, Al-Amana Press, Cairo.
- Adam Abdullah Al-Ilori (1990) An article presented by the Sheikh in the Sufi symposium on the occasion of the fortieth anniversary of the founding of the Arab-Islamic Education Center entitled: The Role of Sufism and Sufism.
- Adam Abdullah Al-Ilori, (1982) Crystal Glimpses in Famous Ilorin Scholars, Al-Adab Publishing and Distribution Library, Cairo,
- Adam Abdullah Al-Ilori (1990) An article presented by the Sheikh in the Sufi symposium on the occasion of the fortieth anniversary of the founding of the Arab-Islamic Education Center, entitled: The Role of Sufism and Sufism, in 1990 AD.
- Ahmed Baba of Timbukti (1990), Nail Al-Ibtihaj with the margin of the golden brocade, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.
- Ahmed Saeed Gladinshi (1990), The Arabic Language and Literature Movement in Nigeria, Dar Al-Maaref edition.
- Ali Abu Bakr (1990) Arab Culture in Nigeria from 1750 to 1960, Abdul Hafeez Al-Bassat Foundation, 1st edition.
- Ali Yacoub (2022) The efforts of African scholars to spread Islamic and Arab culture. West Africa as a model: 2022 AD, lecturer at the Islamic University - in Niger.
- Fadel Claude Al-Dakko (1998), Islamic Culture in Chad in the Golden Age of the Kanem Empire from 600-1000 AH, Islamic College Publications, 1st edition.
- Fath al-Shukur (1991) In the knowledge of the notable scholars of al-Takrur, by al-Walati, Dar al-Gharb al-Islami, Beirut, 1st edition.

- Harun Hadijia (2010) Reflections on Nigerian educational policy towards its position in teaching Arabic language, Al-Qalam Journal in Arabic Language and Literature, North-West University.
- Ibrahim Tarkhan (1968), Islam and the Arabic Language in Western and Central Sudan, Omdurman Magazine, No. 2.
- Islamic Civilization in Niger, published by ISESCO in 1994.
- Muhammad Al-Amin Omar (1996), Sheikh Abu Bakr Ateeq and his collection, The Gift of Loved Ones and Khalan, Al-Zahraa Press, Cairo.
- Musa Abdel Salam Abiken (2014), The Tijaniya Order and its Role in Spreading Arab-Islamic Culture in Nigeria, Kogi Ainba State University, Nigeria, Heritage Annals Magazine, Mostaganem University, Issue Fourteen.
- Musa Abdul Salam Mustafa Abiken (2006), Sheikh Abdullah Yusuf Al-Lakoji and his contribution to Nigerian Arabic literature.
- Musa Suleiman (2000) Islamic Civilization in Nigeria, university press, Ibadan, 1st ed.
- Othman Brima Bari (2001) The Roots of Islamic Civilization in the Islamic West, 1st ed.
- Saleh Musa Ibrahim (1987), Al-Murshid fi Islamic History, Al-Hikma Company Press, Kuno.
- Sheikh Othman Kabir (2005), Sufi Poetry in Nigeria, Dar Al-Nahar, Cairo.

الفصل الثاني

الاستثمار السياسي في التصوف ورهانات القوة الناعمة المغربية في إفريقيا

Political Investment in Sufism and the Stakes of Moroccan Soft Power in Africa

حميد أوفقير
باحث في سلك الدكتوراه تخصص القانون العام والعلوم السياسية
جامعة ابن زهر، أكادير (المغرب)

الملخص:

تتناول هذه الورقة أبعاد الاستثمار السياسي في التصوف كتوجه جديد في السياسة الدينية الرسمية المعلنة بعد الأحداث الإرهابية سنة 2003. انطلاقا من رؤية براغماتية ترنوا توظيف ما يزخر به التصوف من قيم روحية لتأميم الحقل الديني وإقصاء كل التوجهات الدينية المتشددة منه، وإعادة التوازن والاستقرار إلى الحقلين الديني والسياسي بما يضمن شرعيتهما. إن استثمار المغرب في الطرق الصوفية لم يقتصر على الشأن الداخلي، بل امتد إلى الشأن الخارجي، عبر نهج دبلوماسية روحية ناعمة في إفريقيا تهدف إلى تصدير تجربته المتميزة في المجال الديني، واستثمارها في خدمة أهداف جيوستراتيجية، وترسيخ مكانته كقوة إقليمية.

الكلمات المفتاحية: التصوف، الاستثمار السياسي، القوة الناعمة، الديبلوماسية الروحية.

ABSTRACT:

This paper addresses the dimensions of political investment in mysticism as a new orientation in the official religious policy announced after the terrorist events of 2003. Based on a pragmatic vision of employing the rich spiritual values of mysticism to nationalize the religious field, exclude all strict religious orientations from it, and restore the balance and stability of religious and political fields to ensure their legitimacy .Morocco's investment in Sufi roads is not limited to internal affairs but extends to external affairs through soft spiritual diplomacy approaches in Africa aimed at exporting its outstanding experience in the field of religion, investing in the service of geostrategic objectives, and consolidating its status as a regional force.

Key words: *Sufism, political investment, soft power, spiritual diplomacy.*

المقدمة:

إنّ علاقة الدين وأنظمة الحكم في البلدان الإسلامية يرجع إلى نظام الحكم في الإسلام. إذ شكل الدين العصب الأساسي لتطور الأنظمة وضمان مشروعيتها السياسية. وكسائر الأنظمة السياسية يستند النظام السياسي المغربي على التقليد والرأسمال الديني الرمزي لإضفاء المشروعية على حكم الأنظمة المتعاقبة على المغرب منذ دخول الإسلام. ليظل احتكار الديني واستخدامه كوسيلة لإعادة إنتاج المشروعية السياسية.

إنّ حضور الديني في بنية النظام السياسي المغربي جاء ضمن الفلسفة السياسية لحكم الراحل الحسن الثاني، الذي أولى المسألة الدينية مكانة مهمة، في خضم تدبيره لشؤون الدولة والصراع السياسي في فترات معينة بين قوى مختلفة. وضعت قوامه -الديني-البنى القانونية والمؤسساتية منذ الاستقلال، مجسدة في تكريس الطابع الديني في أول دستور سنة 1962 من خلال التنصيص على إمارة المؤمنين ودسترتها في الفصل 19 ثم في تسويق نموذجه الديني من خلال المرتكز المذهبي المالكي والعقيدة الأشعرية ثم التصوف الجنيد.

لقد احتل التصوف مكانة مركزية دخل هذه الهندسة الجديدة للحقل الديني. وتم تقديمه كتجل للسلطة، أو كرأسمال سياسي لضمان الوضع القائم، في مواجهة الأصناف الدينية الأخرى المتطرفة والمنافسة، التي تتسم بالطابع الثوري المعارض، وهي أطروحة تضع التصوف في الرسمي في مقابل الأنماط الدينية الأخرى.

يمكن فهم الزخم القوي الذي تعرفه الطرق الصوفية في المغرب، سيما في بعض مظاهرها الرسمية بالإرادة السياسية للدولة، والتي ترنوا إلى استثمار التصوف كرأسمال رمزي وتراث روحي مشترك بين المغرب ومحيطه الإفريقي، من أجل مواجهة التطرف الديني والدفاع عن القضايا الإستراتيجية للمملكة المغربية، وتعزيز نفوذها الإقليمي، عن طريق تصدير الروحي والرمزي وترويج نموذج الإسلام المعتدل والمتسامح في مواجهة الإسلام السلفي المتطرف.

وعليه، تروم الورقة بحث إشكالية: كيف يتم توظيف التصوف كقوة ناعمة عابرة للحدود لتعزيز الشرعية السياسية ودعم النفوذ الإقليمي للمملكة المغربية في القارة الإفريقية؟

تفترض الورقة أنّ رهان الدولة على الفاعل الصوفي كان قويا، وهو ما سيجعل من الصوفية أساس سياستها الدينية الجديدة لمواجهة الحركات الدينية المتطرفة والمعارضة من جهة، وتعزيز شرعية النظام السياسي المغربي ونفوذه الإقليمي في إفريقيا من جهة ثانية.

بناء على الإشكالية والفرضية الواردة أعلاه نورد التصميم التالي:

المبحث الأول: الاستثمار السياسي في التصوف كرأسمال رمزي.

المبحث الثاني: الدبلوماسية الروحية كقوة ناعمة للمغرب في إفريقيا.

المبحث الأول: الاستثمار السياسي في التصوف كرأسمال رمزي.

الفرع الأول: مكانة الصوفية ضمن هندسة الحقل الديني المغربي.

يتميز الحقل الديني والسياسي المغربي بالتعدد والتنوع، إذ شكل منذ نشأة الدولة المغربية الحديثة محط أحداث عديدة وتفاعلات مستمرة تتميز بالتداخل بين الديني والسياسي، كسمة تميز بها النظام السياسي المغرب. ويحتل التصوف كمؤسسات دينية تحظى بالإجلال والتوقير مكانة مركزية في هذا التفاعل بين السياسي والديني، ولعل التاريخ الاجتماعي والسياسي للزوايا والطرق الصوفية في المغرب شاهد على ذلك. في هذا الإطار سنحاول رصد أبعاد الإستثمار

السياسي في التصوف كتوجه جديد في السياسة الدينية الرسمية، مستعينين في ذلك ببعض الأحداث التي برز فيها التصوف سياسيا وأكثر تنظيما.

شهد المغرب مع بداية الألفية الثالثة دينامية غير مسبوقة في الحركات الإسلامية سيما ذات التوجه السلفي القائمة على أيديولوجية "الجهاد المتطرف"، متأثرا بما يشهده السياق المغاربي من تنامي حدة التوجهات الدينية الراديكالية سواء على المستويين الاجتماعي والسياسي. إذ لم يعد المغرب استثناء من هذا المد الإسلامي الراديكالي، "وانتهت أسطورة الخصوصية المغربية؛ المغرب لم يعد محميا بخصوصيته السياسية وراء أمير المؤمنين" (أبو اللوز، 2013، ص27).

لقد شكلت الأحداث الإرهابية يوم 16 مايو 2003 بالدار البيضاء منعطفا لإعادة التفكير في السياسة الدينية المغربية. وإعلانا صريحا عن دخول المغرب مرحلة جديدة من التدبير السياسي والديني. من هذا المنطلق اتجهت المقاربة الرسمية إلى محاولة تأميم وضبط الحقل الديني، وإقصاء كل التوجهات الدينية المتشددة التي لا تتوافق مع الأسس الدينية للمجتمع المغربي وطبيعة التدين المعتدل لدى المغاربة، معلنة عن هويتها الدينية التي تنهل من ثلاث مرجعيات أساسية تكمن في المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السني. رسم معالمها الخطاب الملكي في 30 أبريل 2004. وجسدها التوجه العملي لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية عن طريق مأسسة الحقل الديني، وإعادة النظر في منظومة التكوين وغيرها من الإصلاحات التي ترمي إلى عقلنة الحقل الديني.

يعد التصوف السني بالمغرب ركنا مركزيا في هذه الإصلاحات، إذ يقدم كواجهة لمواجهة التطرف الديني للتيارات المتشددة، التي تفرغ الدين من قيمه الروحية والحضارية الراقية. ويراهن على التصوف السني أيضا من أجل دعم المشروعية الدينية لأمير المؤمنين، إضافة إلى تقوية البعد التعبدي الزهدي (جرموني، 2017، ص201) وضمان الأمن الروحي للمغاربة.

لقد تعزز حضور الفاعل الصوفي في المشهد السياسي والاجتماعي المغربي من خلال الترويج لنموذج الإسلام المعتدل والمتسامح. من هذا المنطلق عملت الدولة المغربية على احتواء مشايخ الصوفية وتمكينهم من مناصب كبرى عبر إدماج النخب الصوفية في الحقل السياسي المغربي، وذلك بفضل علاقتهم السياسية مع النظام السياسي، وعلى سبيل المثال تحتل الطريقة القادرية البودشيشية مكانة هامة في النسق السياسي المغربي، وتتمتع بأكبر قدر من التغلغل في النسق السياسي المغربي. ويرجع ذلك إلى الشبكات الشخصية التي بناها مجددها الشيخ محمد حمزة القادري البوتشيشي مع النظام السياسي. (Darif,2010; p78) ويظهر هذا أيضا في تعيين أحمد التوفيق المنتسب إلى الطريقة القادرية البودشيشية وزيرا للأوقاف والشؤون الإسلامية. وهو التعيين الذي يثبت أن هذه الطريقة تعير نخبها إلى الذراع السياسي للدولة، من أجل الدفاع عن خيارات السلطة السياسية، وإضعاف التيارات الإسلامية الثائرة والمقاومة للمرجعية الرسمية.

لقد فتح هذا التوجه الرسمي الأبواب على مصراعيها لحضور التصوف الطرقي في المشهد العمومي والوسائط الإعلامية المختلفة، عبر توسيع نطاقات

اشتغالاته وأنشطته التي امتدت إلى جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية (صنهاجي، لارحزيز، 2024، ص146). يمكن ملاحظة ذلك في الدروس الحسنية التي قدمها أحمد التوفيق والتي أكد فيها على أهمية المنهج السلوكي والأخلاق الصوفية كتيمة للإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، معتبرا أن الأخلاق الصوفية يمكن أن تعزز مساهمة المغرب في المجتمع العالمي. مضيفا أن "الإسلام يفتح الباب لهذا النهج، ويشجع الناس على التنافس في فعل الخير بدلا من التنافس في الشر والطغيان"(النسب الشريف والسند الصوفي في تاريخ المغرب، 2012، habous.gov.ma). ويمكن ملاحظة الحضور القوي للتصوف السني، في الدروس الحسنية التي يقدمها أحمد التوفيق منذ تنصيبه على رأس وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، إلى أخر درس قدمه سنة 2024 حول تجديد الدين في نظام إمارة المؤمنين.

وفي ذات السياق، شجعت الدولة المغربية الأنشطة المرتبطة بالطرق الصوفية المعترف بها رسميا (البودشيشية، التيجانية والكتانية...) وكذلك تلك التي توصف بأنها "شعبية" وتنتمي إلى التراث غير المادي مثل (الكناوة، الحمدوشية...) (WITULSKI,2019). لقد سعى الصوفيون إلى ترسيخ وجودهم في المغرب من خلال نشر المشاريع التربوية والفنية التي شجعها ورعاها أمير المؤمنين محمد السادس (CHIH,2012,pp24-28). إذ يتم إنفاق مبالغ مالية مهمة على الزوايا والأضرحة وتقدم لهم هبات موسمية، وفي هذا الصدد صرح وزير الأوقاف في جلسة برلمانية أن الوزارة تنفق ما يفوق 16 مليون دولار على الزوايا والأضرحة (بوعلام، الزوايا والملكية بالمغرب رعاية ومآرب أخرى، 2018، https://2u.pw/K6n08VvE).

كما يولي الملك اهتماما خاصا بتنظيم المهرجانات الدولية ولقاءات النقاش حول الفن والثقافة الصوفية (مهرجان فاس السنوي للموسيقى الروحية)، فضلا عن اللقاءات الدولية للصوفية نذكر على سبيل المثال "اللقاء العالمي للتصوف" الذي يقام مرة واحدة كل سنة في مداغ، حيث يقع المركز الديني الرئيسي للطريقة القادرية البودشيشية. (الرابطة المحمدية للعلماء، https://2u.pw/V0a5MtSy) وتحمل هذه الأنشطة دلالات رمزية وتاريخية قوية، وتقدم في أماكن تاريخية لها معاني عميقة توحي تجدر الصوفية في المخيال المجتمعي، ومنقوشة في الهوية الوطنية المغربية. إضافة إلى لقاءات فكرية وثقافية وأناشيد وترانيم، تشكل وسيلة قوية للتعبير الاجتماعي، يندمج من خلالها الدنيوي والمقدس في لحظات ساحرة ترفع الإنسان فوق الاهتمامات المادية، وتوافق بين الجسد والروح، وتجمع بين المحلي والعالمي.

في المقابل، لعبت الزوايا دورها السياسي الحاسم في ضبط التوازنات العامة، إذ لم تخف ولاءها ودفاعها عن النظام السياسي المغربي. إن ما يزكي هذا الطرح مجموعة من الأحداث التي وظفت فيها الطرق الصوفية في الصراعات السياسية، ولعل أبرز هذه المشاهد نزول الطريقة القادرية البودشيشية في مظاهرة حاشدة يوم السادس والعشرين من يونيو سنة 2011 بالدار البيضاء حاملة شعار الطريقة القادرية البودشيشية تدعو عموم الشعب المغربي إلى التصويت بنعم على الدستور، في رد على حركة 20 فبراير وحركة العدل والإحسان المعارضين للدستور ومنهجية تأسيسه (صنهاجي، لارحزيز، 2024، ص150).

كما تم توظيف الصوفية للترافع عن قضية الصحراء، من خلال استعراض الطريقة البودشيشية في موسمها السنوي لامتدادها الروحي في الأقاليم الجنوبية. إضافة إلى تعزيز الدبلوماسية الروحية وجسر قنوات التواصل مع مختلف الطرق الصوفية في غرب إفريقيا والإسهام في تمتين العلاقات المغربية الإفريقية. (Berriane, 2014,p140-142)

الفرع الثاني: الرمزي والروحي وحضوره في الثقافة السياسية المغربية .

يتميز التصوف بقيم معينة وممارسات رمزية وطقسية وعقائدية روحية تمثل المظهر الرئيسي للعبادة الصوفية، وقد تأثرت الثقافة السياسية المغربية بها بشكل عميق منذ دخول التصوف إلى المغرب في القرن الخامس عشر. إن البناء العقائدي الصوفي يقوم على انتاج وإعادة إنتاج تسلسل هرمي من الشيخ إلى المريد. في هذا الصدد يقول الصوفيون "إن المريد يجب أن يكون في يد شيخه كما تكون الجثة في يد غاسل الموتى" (Éric Geoffroy, 2019, p44). إن المريد الذي قضى وقتا طويلا يصبح منضبطا إلى إرادة المعلم الصوفي. وترافق هذه التراتبية طقوس ورموز معينة لها دلالات تبقى متوارثة من جيل إلى جيل.

يمكن القول، إن الثقافة الصوفية قد انسلت إلى الحقل السياسي المغربي، وتمت شرعنتها لتضحي هيمنة سياسية .Spadola, Catanzaro,2020,p82) وكما يقول بادي فكل ثقافة سياسية لا تحيل إلى نموذج جاهز ولكن إلى سياقات تاريخية (Badie, 1993, p61). إن الظهور التاريخي للثقافة السياسية المشبعة بالصوفية لا ينفصل عن تشكيل الدولة المغربية الحديثة وهويتها الوطنية. في هذا الصدد يعتبر عبد الله حمودي أن التأثير الصوفي في

النسق السياسي والاجتماعي المغربي يرتكز على فعالية الطقوس، كما أن أرشيفها منقوش بشكل غير واعي في أجساد المغاربة وفي مخيالهم الاجتماعي (حمودي،2010).

يتلقى الشيخ في التعاليم الصوفية معرفته من معلم في شكل سلسلة متوارثة من جيل إلى جيل. هذه السلسلة ضرورية لإضفاء الشرعية على تعاليم الشيخ في معظم الطرق الصوفية. ويعد الشيخ وليا مباشر لله، ويشتهر بامتلاكه كاريزما وقوى خارقة للطبيعة، وللعالم المادي يطلق عليها في التعاليم الصوفية "البركة" تجسد النعمة الإلهية التي منى بها الله الشيخ؛ مثل قراءة عقول الناس وتفسير الأحلام وعلاج المرضى عن طريق لمسهم أو الدعاء لهم. (Bouasria, 2017,p6) إن هذه الطقوس لا تزال مترسخة في الثقافة السياسية والاجتماعية المغربية من خلال استمرار الإيمان ببركة الأولياء والوفاء بالموارد المادية والرمزية التي تتطلبها طقوس الموسم والزيارة. وهو ما يشكل تعبيرا اجتماعيا عن التعلق بالقداسة الصوفية، مع اقترانه بالواجب المتمثل في الولاء الروحي وخدمة الأولياء والشيوخ.

ومن الكتابات التي تناولت قوة الرموز والطقوس في الحقل السياسي المغربي، والتي تتماهى في الكثير من تفاصيلها مع التصوف نجد كتاب "Honneur et Baraka " الذي يحلل الأبعاد الزمانية والروحية وكذلك الرمزية "للبركة" في النسق السياسي المغربي. ويميز بين بركة محلية يستمد منها شيوخ الزوايا قوتهم الروحية، وبركة أخرى أكثر اتساعا ومركزية يتمتع بها السلطان على مر تاريخ المغرب باعتباره "سلطانا شريفا". (Raymond,1981)

يعتبر الشيخ الأب الروحي لأتباع الطريقة الصوفية، يقدمون له الإجلال والطاعة والاحترام، ومن مظاهر هذا الاحترام "تقبيل معظم الصوفيين يد شيخهم"(حمودي، 2010، ص37). وهو ما نجده أيضا حاضرا في بنية المجتمع المغربي وفي النسق السياسي ومؤسساته كدليل على الاحترام والتقدير. إن الخصال الرفيعة التي تتسم بها الملكية باعتبارها منحدرة من سلالة الرسول، تجسد في أعين الشعب معجزة سلفه، ومن هنا فإن هذه السلالة التي تضعها الإرادة الإلهية فوق الجميع، جديرة بتجاوز كل الاختلافات؛ إن الأمة تتجاوز انشقاقاتها وانقساماتها عن طريق الخضوع لسلطة مقدسة، كما تهب نفسها للوقوف ضد الأخطار الداخلية والخارجية التي تهدد هذه السلطة.

إن واجب طاعة الحاكم للمحكوم في النسق السياسي المغربي تتخذ أشكالا مختلفة، وتعد البيعة أنموذجا لها بحيث تجسد مظهرا من مظاهر ولاء الأمة للسلطان ولأمير المؤمنين. (حمودي، 2010، 37) فالبيعة تنبني على الإجماع، الذي يتجاوز البعد الزمني إلى الروحي، إنها رباط ينهل من شريعة الله المقدسة التي تتجاوز البعد المادي والقانون الوضعي، والمفاهيم التي أنتجتها الحداثة السياسية الغربية؛ إنها علاقة روحية مستمرة في الزمان والمكان بين السلطان والأمة، متعالية على كل تنظيم مؤسساتي.

إلى جانب المجد الذي يمنحه اللقب العائلي والمنجزات التاريخية، والشرعية التي تضفيها البيعة، تضاف صورة الملك الحكم. وهي صورة تأتي لتعضيد العلاقة المباشرة بينه وبين الشعب (حمودي، 2010، ص43). إن التحكيم يجعل السلطان يسمو على المصالح الخاصة ويترفع على الخصومات

الحزبية، ويبقى محايدا كما هو الحال بالنسبة لشيخ الزاوية، ما يعزز طبيعته الكاريزمية ويشرعن قوته التحكيمية الملزم للجميع. وإذا كانت الزوايا الصوفية قد لعبت **دورها** الحاسم في ضبط التوازنات العامة وإعطاء المجتمع المغربي الحد الأدنى من النظام والاستقرار. فإن الأمر ذاته ينطبق على سلطة التحكيم الملكية داخل النظام السياسي المعاصر (Raymon,1981).

وفي مستوى آخر، يتم اللجوء إلى استثمار المعرفة الدينية في الخطاب السياسي بهدف إضفاء طابع اليقينية والمطلقية على هذا الخطاب، بهذه الكيفية يصبح الخطاب السياسي مجالا لتكريس الخطاب الديني مثلما تصبح المصلحة السياسية مختفية وراء اللغة الدينية، ويصبح تعلق الناس بخطاب الزعيم تعلقا دينيا بوصفه مرجعية حقة ومقدسة (نور الدين الزاهي، 2011، ص166).

إن اختيار الممثلين في الصوفية يقوم على أساس صفات مميزة مثل الإخلاص، أو المعرفة بطقوس الطريقة الصوفية، أو القدرة على خلق الانسجام في المجموعة، أو عن طريق الأقدمية أو الانتماء إلى عائلة الشيخ وهو منصب يمنح حامله هيبة رمزية وقربا من الولي بمعنى أن صوته سيصبح ذي سلطة. (Bouasria,2017, p7) إن هذه الخصال نجدها أيضا حاضرة في النظام السياسي المغربي ومؤسساته السياسية، وتتجسد بشكل كبير في الأحزاب السياسية المغربية من خلال توظيف ورقة الدين والشرف والنسب والزعامة والامتداد التاريخي وغيرها من التمظهرات التقليدانية الحافلة بطقوس القداسة في هيكلة الحزب.

يعتبر محمد كابلي أن الطريقة الصوفية عبارة عن مؤسسة معقدة تتكون من ثلاث مستويات التنظيم: المستوى العقائدي، ويضم مجموعة من الطقوس التي حددها الشيخ لتلاميذه للقيام بها. والمستوى الثاني، يتضمن التنظيم أو الطائفة، ويشير إلى مجموع العلاقات بين المعلم وتلاميذه وفيما بين التلاميذ أنفسهم. والمستوى الأخير يضم المجال البراغماتي أو الزاوية، ويشير إلى تجسيد المستويين الأول والثاني من التنظيم في الزمان والمكان (Kably Mohamed, 1969,p307).

إن النسق المؤطر للمؤسسات السياسية يعيد إنتاج هذه المستويات التي تميز الطريقة الصوفية، فإذا كان الشيخ هو امتداد الله وحامل الرسالة والمريد هو مبلغ الرسالة، فإن السلطان في النسق السياسي يصبح مرسلا والنخبة السياسية مبلغة لهذه الرسالة إلى الناس باعتبارهم مرسلا إليه قصد ضمان وحماية العلاقة بينهم وبين السلطان، وبهذه المماثلة يصبح التمثل السياسي للنخبة الوطنية معيدا لإنتاج جوهر التمثلات الدينية في التعاليم الصوفية، فالارتباط بالسلطان تستقي منه النخبة شرعية فعلها كفعل السياسي كفعل قدسي. (الزاهي، 2011، ص166).

إن هذا التماثل بين الطرق الصوفية والنظام السياسي المغربي يمتد إلى المؤسسات السياسية، في هذا الصدد يؤكد محمد ضريف أن بنية الحزب السياسي في المغرب تحتضن نفس خاصيات بنية الزاوية. مركزا في ذلك على التشابه الحاصل بين الزعيم الحزبي في علاقته مع العضو المنخرط وبين الشيخ في علاقته بالمريد. إنها علاقة مبنية على التقديس. (ضريف، 1986).

إن سمات الطرق الصوفية التي تطرقنا إليها أعلاه نجدها حاضرة بقوة في الحقل السياسي المغربي، بل يمكن اعتبارها الضامن لشرعيته. إن الرابط الذي يحكم علاقات الشيخ بالمريد ينطبق إلى حد كبير، وإن بشكل مختلف على تجربة النظام السياسي المغربي. بل يمكن القول إن قوة التصوف لا تحضر فقط في الحقل السياسي، بل تمتد أيضا إلى المستوى الاقتصادي والاجتماعي. ولعل هذا يفسر اهتمام الدولة بالثقافة الصوفية وإحياءها باعتبارها رأسمال رمزي، بل وتصديرها إلى البلدان الإفريقية المجاورة في إطار الديبلوماسية الروحية، لتعزيز المصالح الخارجية المغربية في إفريقيا.

المبحث الثاني: الدبلوماسية الروحية كقوة ناعمة للمغرب في إفريقيا.

الفرع الأول: الحضور القوي لإمارة المؤمنين في غرب إفريقيا.

لعبت الطرق الصوفية على مر التاريخ حلقة وصل بين المغرب وغرب أفريقيا، إذ أضحت عاملا مهما في توطيد العلاقات المغربية الإفريقية في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وقد تعزز هذا الدور بفضل الإصلاحات الكبرى التي انخرط فيها المغرب، والتي همت إعادة هيكلة الحقل الديني المغربي، بعد الأحداث الإرهابية التي شهدها العالم مطلع الألفية الثالثة بصفة عامة والمغرب بصفة خاصة.

إن تبني المغرب أنموذج الإسلام المعتدل الذي ينهل من ثلاث مرجعيات أساسية تكمن في العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي والتصوف الجنيد، جعله محط أنظار العديد من الدول الإفريقية، الذين يرون في الإسلام المعتدل نموذجا

دينيا منفتح ومتسامح وضامن للاستقرار، يمكن من خلاله مواجهة التطرف الديني والحركات السلفية المتطرفة التي تجد في الكثير من مناطق إفريقيا مستقرا لها.

إن رهان الدولة المغربية على الفاعل الصوفي كان قويا، وذلك راجع لكون الطرق الصوفية في المغرب تعد جزءا من الفضاء السياسي؛ حيث إن درجة حضور التصوف في المجال السياسي المغربي يصعب مقارنة تأثيره بأي بلد مغاربي (ولد الأمير، 2021، ص23). على هذا الأساس جعل المغرب من الطرق الصوفية أساس دبلوماسيته الروحية في إفريقيا.

لقد استطاعت الدبلوماسية الروحية التي اعتمدها المغرب أن تلعب أدوارا ريادية في توجيه البوصلة السياسية بإفريقيا، وفي حلحلت الكثير من التجاذبات السياسية. إذ لم يعد ينظر إلى التصوف كحالة من الزهد والتعبد الفردي كما في جوهره، وإنما أضحى مؤسسات ضخمة لها امتداد عابر للقارات كافة، تتجاوز أدواره تزكية النفوس إلى التوظيف السياسي في مختلف المجالات (ودادي، 2021، ص235).

إن توظيف المغرب للطرق الصوفية مكنه من مد قنوات الحوار والتواصل وصيانة نسيج العلاقات الحضارية والسياسية بين المغرب وإفريقيا. ويتجسد ذلك في مجموعة من المبادرات التي تهدف إلى استثمار التراث الصوفي الروحي المغربي الأفريقي المشترك، وإقامة شراكات استراتيجية حيوية طويلة المدى مع

الدول الإفريقية. ومن مظاهر هذه المبادرات الزيارات الملكية "لأمير المؤمنين" إلى إفريقيا.

لقد لعبت الدينامية النشطة التي تقودها "إمارة المؤمنين" في أفريقيا دورا مهما في تعزيز العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمغرب مع دول غرب إفريقيا. ففي السنوات العشرين الأخيرة قام الملك محمد السادس بأزيد من خمسين زيارة إلى ثلاثين بلدا إفريقيا، وتم خلالها توقيع أزيد من 1000 اتفاق (المملكة المغربية، رئيس الحكومة، 2022: https://www.cg.gov.ma/ar/node/10927). وبصرف النظر عن الجوانب السياسية والاقتصادية التي تهيمن على أجندة الزيارات، فإن تعزيز الروابط الروحية بين المغرب وعمقه الإفريقي وترسيخ المكانة الرمزية والتاريخية للمؤسسة الملكية وحضورها في الفضاء العام لهذه البلدان يجد مبرره في هذه الزيارات.

وقد حرص الملك محمد السادس خلال هذه الزيارات على قيادة أنشطة ومبادرات دينية رمزية موازية؛ أبرزها تشييد مساجد في دول إفريقيا. إضافة إلى إقامة صلاة الجمعة في عواصم بعض الدول الأفريقية السنغال، ومالي، والغابون ونيجيريا. كما دأب الملك على توزيع آلاف النسخ من القرآن الكريم، التي طبعتها "مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف"، على عدد من المساجد في هذه الدول. (Hmimnat 2018).

في ذات السياق، أولى الملك حرصه على لقاء عدد من الزعماء الدينيين وشيوخ الطرق الصوفية، الذين يتمتعون بنفوذ واسع في دول جنوب أفريقيا، وخاصة في السنغال وكوت ديفوار والغابون أثناء جولته الإفريقية في سنة 2014. واستقبل الملك شيوخا وزعماء روحيين من كافة الأسر الصوفية التيجانية، بالإضافة إلى ممثلي المدارس الصوفية الأخرى، وخاصة القادرية والمريدية، والمندوبين الذين يمثلون المجلس الأعلى للأئمة الإيفواريين، وأعضاء المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في الجابون. (Salim Hmimna,2018).

إن هذه الزيارات بين أمير المؤمنين والطرق الصوفية تتحول إلى نوع من الاتصال المباشر بين الزعيم الروحي وأتباعه. وهو اتصال رمزي يتجاوز مختلف الاعتبارات الزمنية والمادية. يظهر هذا في أول زيارة ملكية للملك محمد السادس إلى السنغال سنة 2001، حيث حث زعيم الطريقة التجانية جميع المنتسبين إلى التيجانية على الخروج بأعداد كبيرة من أجل استقبال ملك المغرب بترحيب، كعلامة على الولاء واستمرار العلاقة الروحية التي تربط الطريقة التجانية بالمؤسسة الملكية. (Sambe, 2010,p141) كما يحظى الملك في ختام الاحتفالات الدينية الرسمية للطريقة التجانية في السنغال بالدعاء.

إن الزيارات الملكية إلى دول إفريقيا تجسد الهوية المشتركة والروابط الروحية التي تجمع المغرب مع محيطه الإقليمي وتجسد واجبا دينيا يقتضي تعزيز

أواصر المودة والأخوة بين الشعوب والأمم، وتشجيعا على التعاون المثمر في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

إلى جانب الأنشطة الملكية، عملت المملكة المغربية على مأسسة الشراكة المغربية الإفريقية في المجال الديني عبر إنشاء مجموعة من المؤسسات التي تعنى بالتأطير الديني وتصدير قيم ومرتكزات الإسلام المعتدل المغربي إلى الدول الإفريقية. ومن بين هذه المؤسسات نجد معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات الذي تأسس سنة 2015. ويضطلع بمهام تكوين الأئمة المرشدين والمرشدات القادمين من مالي والسنغال ونيجيريا وغينيا وغامبيا وتشاد وكوت ديفوار... في مجال الإمامة والإرشاد وتمكينهم من المناهج والمعارف التي تؤهلهم للقيام بالمهام الموكولة إليهم.

لم يكتف المغرب بإنشاء معهد تكوين الأئمة والمرشدين، بل سعى إلى تنظيمهم ضمن مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، التي ترنو إلى توطيد العلاقات التاريخية المغربية الإفريقية، وتوحيد وتنسيق جهود العلماء المسلمين، في كل من المغرب وباقي الدول الإفريقية. وذلك بغرض التعريف بقيم الإسلام السمحة ونشرها وترسيخها، وجعلها ركيزة أساسية للتعاون في مختلف المجالات. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف وتوسيع نفوذ هذه المؤسسة تم إحداث أكثر من 300 فرع لها في 48 بلدا إفريقيا (المجلس العلمي الأعلى، https://2u.pw/MZ1XABCV).

إن جهود المغرب لبناء شراكات جديدة مع دول غرب إفريقيا آتت أكلها، ويظهر ذلك في ارتفاع عدد الشراكات الدينية المبرمة بينهما، والتي انتقلت من 5 بين عامي 1975-1999 إلى 10 بين عامي 2000-2011، ثم تضاعف العدد إلى 36 شراكة بين عامي 2012-2016. (الزايداوي، دبلوماسية العارفين بالله المغرب يُحلّق دوليا بأجنحة صوفية، (https://2u.pw/O7UEe7o7j

وكما يظهر من هذا الزخم المتزايد للدبلوماسية الدينية، فإن أهدافها تتجاوز مجرد مد جسور التواصل مع الفاعلين الإسلاميين في البلدان الأفريقية القريبة من المغرب إلى المساهمة في جهود مكافحة التطرف، وتعزيز السلام في منطقة الساحل والصحراء، وفي نهاية المطاف ترسيخ الحضور الإقليمي للمملكة على المستوى الدولي

الفرع الثاني: الاستثمار السياسي في الطرق الصوفية لحشد دعم أفريقي للصحراء المغربية.

يعتبر التصوف أحد أهم القواسم المشتركة التي تربط المغرب تاريخيا وثقافيا بعمقه الإفريقي. لقد كان المغرب على مر التاريخ مركزا محوريا للعديد من الطرق الصوفية، مثل التيجانية والقادرية والدرقاوية الشاذلية وغيرها، وقد كان لهذه الطرق دورا محوريا في نشر الإسلام في غرب وشرق إفريقيا (Salim Hmimnat,2018,p39). وتعد التيجانية من أكبر الطرق الصوفية انتشارا في

غرب إفريقيا، كان لها دورا بارزا في تعميق المشترك الروحي والثقافي بين المغرب وغرب إفريقيا.

أسست الطريقة التجانية على يد أحمد التيجاني في جنوب الجزائر سنة (1781-1782)، ثم بعد ذلك استقر مؤسسها بالمغرب (1737-1815) ودفن بمدينة فاس. وقد شهد القرن التاسع عشر أهم محطات انتشارها في كل من المغرب وغرب إفريقيا، وذلك بفضل حركة التنقل التي كان يقوم بها علماء الطريقة وشيوخها، حيث أصبحت مدينة فاس محجا للتجانيين الأفارقة الذين صاروا يعتقدون بوجوب زيارة المدينة حيث يوجد ضريح الشيخ أحمد التيجاني(Berriane,2014,p144).

إن هذه الدينامية الروحية التي رسختها الطريقة التيجانية ساهمت في بناء فضاءات ثقافية وتشبيك علاقات سياسية عابرة للحدود بين المغرب وغرب إفريقيا. من هذا المنطلق سنحاول بحث تأثير الطريقة التجانية كفاعل غير مؤسسي يعتمد على الانتماء المشترك وقوة الرموز وتفسيراتها المتعددة على السياسة الخارجية المغربية وعلى نزاع الصحراء المغربية.

إن تعزيز النفوذ الديني والسياسي والاقتصادي للمغرب في إفريقيا، وترسيخ مكانته كقوة إقليمية، (Sambe,2010,p843) يفرض الاستثمار في الطرق الصوفية وتعزيز التعاون معها باعتبارها رأسمال رمزي وفواعل دينية

مؤثرة في المحيط الإقليمي للمغرب. وعليه، يمكن القول إن استثمار المغرب في نفوذ الطريقة التيجانية يعود إلى منتصف ثمانينيات القرن الماضي، في إطار مقاربة سياسية ترنوا إلى البحث عن استراتيجيات ديبلوماسية جديدة للتقارب السياسي مع دول غرب إفريقيا. خاصة فيما يتصل بإدارة ملف النزاع حول قضية الصحراء المغربية وحشد دعم إقليمي لها، اعتمادا على النفوذ الكبير للطريقة التجانية في بعض البلدان الإفريقية.

لقد زادت أهمية الدبلوماسية الروحية بعد انسحاب المغرب من الاتحاد الأفريقي سنة 1983 جراء منح جبهة البوليساريو مقعدا داخل الإتحاد الأفريقي، ومنذ ذلك الوقت شكلت الدبلوماسية الناعمة فرصة موازية ساعدت المغرب على توطيد علاقاته مع عدد من الدول الأفريقية. ومن مظاهر ذلك تنظيم وزارة الشؤون الإسلامية منتدى دولي حول "الفكر الصوفي والطرق الصوفية" سنة 1985. وثم تخصيص الجلسة الأولى منه للطريقة التجانية باعتبارها إرثا تاريخيا للعلاقات الوثيقة التي ربطت قادتها الروحيين بسلاطين العلويين، وبالتحديد مولاي سليمان الذي استضاف الشيخ التيجاني ووفر له الرعاية والحماية حتى وفاته ودفنه في فاس سنة 1815.

وقد سعت مبادرة الوزارة إلى تعزيز روابط الاتصال بين المغرب وإفريقيا، وحشد دعم إقليمي لقضية الصحراء المغربية حيث أعرب أحفاد الشيخ أحمد التيجاني عن تمسكهم القوي بالعرش العلوي وتعبئتهم الكاملة خلف جلالته

للدفاع عن الوطن وحماية الصحراء المغربية (Salim Hmimnat,2018,p16). والاستثمار هذا الزخم وتحقيق مكتسبات للقضية الصحراء المغربية ثم عقد الاجتماع العام للطريقة التجانية بالمغرب سنة 2007، حضره ممثلون عن الطريقة التيجانية من أربعين دولة إفريقية، من أجل تدارس السبل الممكنة لتوسيع مجال طريقتهم في مجمل القارة الأفريقية وتعميق نشاطها في مختلف مرابعها (صنهاجي، لارحزيز، 2024، ص158).

وفي مستوى آخر، فإن لشيوخ الطريقة التجانية أيضا استراتيجياتهم الخاصة في الدفاع عن قضية الصحراء المغربية، فحينما اعترف الرئيس النيجيري الأسبق "بابا نغيدا"، بجبهة البوليساريو، استدعى الملك الحسن الثاني سفيره في البلاد فورا، بيد أن التصعيد سرعان ما تم إخماده جراء تدخل عدد من الشيوخ والمبعوثين التيجانيين حتى لا تنقطع حبال الود بين المغرب ونيجيريا. وتكرر الأمر نفسه مع الرئيس النيجيري "أوباسنجو" الذي سمح بفتح مكتب للبوليساريو، لكن الزاوية التيجانية سرعان ما تحرّكت من أجل إعادة الأوضاع إلى نصابها مرة أخرى. (ديبلوماسية العارفين بالله، مرجع نفسه).

لقد أثمرت الجهود التي بذلها المغرب منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين من أجل تجديد موقف البلدان الإفريقية في قضية الصحراء وحشد دعم إقليمي لها، وذلك راجع بالأساس إلى تجربته الفريدة في تدبير الحقل الديني، والعلاقات الروحية والروابط الوثيقة التي تربطه بالطريقة التجانية في غرب

إفريقيا، والتي يترجمها التوافد الكبير لأتباعها من مختلف أعماق إفريقيا إلى المغرب استحضارا لهذا البعد الروحي وإحياء للمناسبات الدينية.

الخاتمة:

في الختام، يمكن القول إن الدراسة قد حاولت الوقوف عند المكانة المركزية التي يحتلها التصوف داخل الهندسة الجديدة للحقل الديني المغربي، باعتباره ضمانة للاستقرار السياسي والاجتماعي اللذين يشكلان شرطين أساسين لتحقيق التنمية في مختلف أبعادها. إضافة إلى ذلك، فإن أهمية التصوف تتجلى في توظيفه كأداة لمواجهة الحركات الدينية المتطرفة، التي عرفت دينامية قوية مطلع تسعينيات القرن الماضي.

إن استثمار الدولة المغربية في القيم السمحة التي يزخر بها التصوف من قبيل الوسطية والاعتدال والتعايش السلمي والتراث الروحي، مكن المغرب من صيانة الأمن الروحي للمغاربة عبر بناء نموذج ديني معتدل وغير متشدد. ولعل هذا ما يفسر اليوم الدعم الرسمي الذي تحظى به الزوايا وفروع الطرق الصوفية في المغرب وغرب إفريقيا.

إن التصوف لم يعد يكتفي بالحضور الداخلي، بل أصبح أداة سياسية ودبلوماسية عابرة للحدود الوطنية لتعزيز الشراكات الإستراتيجية مع مختلف بلدان غرب إفريقيا في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي. إنها قوة ناعمة

عابرة للحدود متعددة الأبعاد يتم توظيفها لمحاربة الحركات الدينية المتطرفة التي تنتشر بكثرة في غرب إفريقيا، وفي تعزيز نفوذ المغرب كقوة إقليمية في أفريقيا. إضافة إلى مساعدة بلدان غرب إفريقيا في إعادة تأهيل مؤسساتها الدينية ودعم بناء قدراتها المؤسساتية. إن التراث الروحي والرمزي المشترك بين المغرب و عمقه الإفريقي، والذي تجسده الطرق الصوفية من شأنه أن يفضي إلى تكامل روحي وأمني واقتصادي بين مختلف دول غرب إفريقيا والنهوض بالتنمية في مختلف مجالاتها.

المصادر والمراجع

المراجع بالعربية:

- أنس صنهاجي، فؤاد لارحزيز، الفاعل الصوفي والأمن الروحي في السياسة الدينية الجديدة للمملكة المغربية: الوظائف والرهانات، مجلة قانون الأسرة والمحكمة الإسلامية، عدد 3 دجنبر 2024

- رشيد جرموني التصوف والسياسة الدينية بالمغرب، عمران، العدد5/19، ، 2017.

- صبحي ودادي، الطرق الصوفية في غرب إفريقيا والإسلام السياسي: تعاون أم تزاحم؟ ضمن مجموعة مؤلفين، الطرق الصوفية في غرب إفريقيا السياقات الاجتماعية والأدوار السياسية، مركز الجزيرة للدراسات، ط،2021.

- عبد الحكيم أبو اللوز، الحركات السلفية في المغرب بحث أنثروبولوجي سوسيولوجي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2013.

- عبد الله حمودي، الشيخ والمريد النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط4، 2010.

- محمد ضريف، مؤسسة الزوايا بالمغرب الإسلامي مساهمة في التركيب، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، السنة الأولى العدد الأول 1986،

- Abdelilah Bouasria, Sufism and Politics in Morocco Activism and Dissent, Routledge 1ed, 2017.

- Berriane, Intégration symbolique à Fès et ancrages sur l’ailleurs : Les Africains subsahariens et leur rapport à la zaouïa d’Ahmad al-Tijânî, open Edition journals 2014,

- CHIH, Rachida, Sufism, Education and Politics in Contemporary Morocco. Journal for Islamic Studies,2012, vol. 32.

- DARIF, Mohamd, Monarchie Marocaine et Acteurs Religieux. Casablanca: Afrique Orient, 2010.

- Emilio Spadola, Alice Catanzaro, Sufism and Moroccan Political Culture: From the Theatrics of Domination to Neoliberal Development Hespéris-Tamuda LV (3) (2020): p 82.

▪ Éric Geoffroy, La relation entre maître et disciple dans le soufisme : une relation exigeante, dans Figures du maître De l'autorité à l'autonomie, OpenEdition Books : 10 juillet 2019.

▪ Kably Mohamed, Société, pouvoir et religion au Maroc : à la fin du "Moyen-Age" : XIVe - XVe siècle Le Fennec 31/12/1969

▪ Salim Hmimnat, Spiritual security' as a (meta-)political strategy to compete over regional leadership: formation of Morocco's transnational religious policy towards Africa, The Journal of North African Studies,2018.

▪ Sambe, B Islamet diplomatie : la politique africaine du Maroc. Rabat: Editions Marsam, 2010.

▪ WITULSKI, Christopher, Music and Religion of Morocco New York: Routledge2019.

● Salam Hmimnat, Morocco's Religious "Soft Power" in Africa: As a strategy supporting Morocco's stretching in Africa,2018, https://mipa.institute/en/5642

● Bakary Sambe, Tidjaniya : usages diplomatiques d'une confrérie soufie, politique étrangère, l4:2010 .P843 https://shs.cairn.info/revue-politique-etrangere-2010-4-page-843?lang=fr#re4no4

▪ الدرس الحسني للوزير أحمد التوفيق بعنوان: النسب الشريف والسند الصوفي في تاريخ المغرب، يوم 7 رمضان 1423 الموافق 12 نونبر 2012. منشور في سلسلة الدروس الحسنية في الموقع الإلكتروني لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: www.habous.gov.ma تم التصفح بتاريخ 16- فبراير 2025.

▪ ينظر البيان الختامي لاجتماع الدورة العادية السادسة للمجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة على الرابط التالي: https://2u.pw/AWSJwH3Ex

▪ المهدي الزايداوي، دبلوماسية "العارفين بالله".. المغرب يُحلِّق دوليا بأجنحة صوفية: https://2u.pw/O7UEe7o7j

الفصل الثالث

دور الدين في سيرورة الاندماج الاجتماعي لمهاجري جنوب الصحراء بالمغرب

المهاجرون السينغاليون بمدينة إنزكان، أنموذجا

The Role of Religion in the Social Integration Process of Sub-Saharan Migrants in Morocco

The Case of Senegalese Migrants in the City of Inzegane, A Model

رشيد تعبدانت

باحث في سلك الدكتوراه تخصص علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال (المغرب)

الملخص:

تندرج هذه الدراسة في خانة المواضيع التي تبحث في علاقة الهجرة بقضايا الدين والاندماج، يتعلق الأمر على وجه التحديد بدور الدين في سيرورة الاندماج الاجتماعي لمهاجري جنوب الصحراء بالمغرب، والأهمية التي يحظى بها بالنسبة لهم، سواء كان استقرارهم بالمغرب مؤقتا أم يجعلون منه كبلد مقصد. لقد مكنتنا الزيارات الميدانية المتكررة لميدان البحث -مدينة إنزكان ونواحيها- من اكتشاف أن أغلبية المهاجرين من المتحدرين من الغرب الأفريقي تتشكل من الطوائف الإسلامية والتيجانية على وجه التحديد. لذلك جعلنا من المهاجرين السينغاليين عينة لبحثنا هذا. ولتحليل سيرورة الاندماج وعلاقتها بالظاهرة الدينية لدى مهاجري دول الساحل وجنوب الصحراء

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الكيفي لمعرفة خبايا تجربة استقرارهم ومدى اندماجهم الاجتماعي داخل المجتمع المغربي والعوامل المرتبطة بذلك، ثم موقع الدين من سيرورة الاندماج من خلال التعرف على دور الانتماء الديني للمهاجر في اندماجه، وكشف الأدوار التي تضطلع بها الزوايا خصوصا التيجانية والمريدية في هذا الإطار، وكيف تتحول الهوية الدينية للمهاجر إلى سبب رفض وإقصاء أحيانا من طرف مجتمع الاستقبال.

الكلمات المفتاحية: الهجرة، الدين، الاندماج الاجتماعي، الهوية الدينية، الزوايا.

Abstract

This study explores the relationship between migration, religion, and social integration, focusing on the role of religion in the integration process of Sub-Saharan migrants in Morocco. It examines the importance of religion for these migrants, whether they see Morocco as a transit point or a final destination. Fieldwork in Inzegane city and surrounding areas revealed that most West African migrants belong to Islamic and Tijaniyyah communities, leading us to focus on Senegalese migrants as our study sample. Using a qualitative approach, we analyze their integration experiences, the factors influencing their social inclusion, and the role of religious affiliation. The study also examines the impact of Tijaniyyah and Muridiyya religious orders in facilitating integration and how religious identity can sometimes lead to exclusion in the host society.

***Keywords**: Migration, Religion, Social Integration, Religious Identity, Religious Institutions*

المقدمة:

إنّ الاستقرار بمدينة إنزكان يفرض بالضرورة التفاعل والاحتكاك بشكل أو بآخر، بمهاجري جنوب الصحراء، باعتبار هذه المدينة قبلة ومكان استقرار بالنسبة لهؤلاء، بغض النظر عما إذا كان استقرارا مؤقتا أو مكان إقامة ومقصد دائم. تعرف هذه المدينة شأنها شأن العديد من المدن المغربية ومنذ مطلع القرن الواحد والعشرين توافدا لمهاجري جنوب الصحراء (سفيان لشهب،2020، ص190)، ويمارسون العديد من الأنشطة بما فيها التسول، التجارة من أجل تحصيل معيشهم اليومي.

لقد كشفت المعاينة الميدانية أثناء تواجدنا المستمر، كمهتمين بموضوع الهجرة، بمدينة إنزكان واحتكاكنا بعينة الدراسة في العديد من الأماكن العمومية بمنطقة البحث (حي تراست، حي الجرف، حي المسدورة، أسايس، أمام سوق الثلاثاء...)، عن أهمية موضوع دور الدين في سيرورة الاندماج الاجتماعي لمهاجري جنوب الصحراء بالمجتمع المغربي، والتركيز على الدور الذي يضطلع به في عملية تكيفهم واستقرارهم الروحي؛ ما وكيف يمكن أن يتحول أحيانا إلى عائق أمام رهان الاندماج الاجتماعي للمهاجر.

لا يمكن أن ننكر اليوم، أن المغرب يعيش نتيجة موقعه الإستراتيجي المتميز كرابط بين قارتين، وضعية تدفق متزايد من المهاجرين القادمين من الدول الأوربية والأسيوية والأفريقية جنوب الصحراء، خلال السنوات العشر الأخيرة (2014/2004)، والحالمون بالعبور إلى الضفة الأخرى (رشيد بن بيه، 2016، ص200). لكن واقع العبور تحول إلى استقرار مؤقت مفضل لدى

الكثير من مهاجري الدول الأفريقية جنوب الصحراء بفعل عوامل المراقبة. إن انتظار مهاجري دول الغرب الأفريقي الطويل لنجاح فرصة الهجرة والعبور إلى أوروبا، أو تكرارها بعد محاولات عديدة والتي تبوء بالفشل غالبا بسبب عسر المراقبات وشدتها وكثافتها، جعلهم يجدون أنفسهم بحكم الواقع مع توالي الأيام والشهور والسنين عالقين بالمغرب، وفي أماكن خاصة، نذكر مدينة إنزكان كونها منطقة بحثنا هذا.

لذلك فموقع هذه المساهمة العلمية، يأتي في سياق بحث دور الدين في سيرورة اندماج مهاجري جنوب الصحراء بمدينة إنزكان خصوصا السينغاليين منهم. والأهمية التي يحظى بها في بلد الاستقبال بالنسبة لهؤلاء المهاجرين، من خلال بحث الدور الذي تلعبه الزوايا في هذا الإطار خصوصا إذا علمنا أنه من خلال الزيارات الميدانية المتكررة لميدان البحث -مدينة إنزكان ونواحيها- أن أغلبية المهاجرين من المتحدرين من الغرب الأفريقي تتشكل من الطوائف الإسلامية، خصوصا التيجانية والمريدية. كما علمنا الحضور الكثيف للزوايا التيجانية[1]. هذا وفضلا عن إبراز الصعوبات التي تطرحها علاقة الدين بسيرورة الاندماج بالنسبة لهذه الفئة. ويمكن أن نعبر عن الإشكالية المركزية لهذا الموضوع كالآتي: ما هو دور الدين في سيرورة الاندماج الاجتماعي لمهاجري جنوب الصحراء بمدينة إنزكان؟

[1] لقد أسفرت الزيارة الميدانية بتاريخ 2022/04/25 على الساعة 14.30 لمندوبية الأوقاف والشؤون الإسلامية بعمالة إنزكان أيت ملول، عن وجود 25 زاوية نشيطة تتلى بها الأوراد والأذكار بصفة مستمرة ومنتظمة؛ منها 13 زاوية تيجانية، و6 زوايا درقاوية، و5 زوايا ناصرية، وزاوية واحدة قادرية جيلانية.

أما الأسئلة الرئيسية التي ستقودنا في هذا البحث فهي الآتية: كيف يساعد الانتماء الديني لمهاجري جنوب الصحراء، السينغاليون، على اندماجهم الاجتماعي؟ وما هي الأدوار التي تضطلع بها كل من الزاويتين التيجانية والمريدية في تيسير عملية اندماج هاته الفئة في المجتمع المضيف؟ ألا يمكن أن يشكل الانتماء الديني للمهاجر، غير المسلم، سبب رفض وإقصاء من طرف المجتمع المغربي كبلد مقصد؟

ولأجل الإجابة عن التساؤلات التي أثرناها في إشكالية البحث، ينطلق البحث من افتراض عام ومركزي يوجه بحثنا مفاده أن هناك علاقة بين الدين وعملية الاندماج الاجتماعي لمهاجري جنوب الصحراء السينغاليين بمدينة إنزكان؛ بحيث يساعد الدين هذه الفئة على تسهيل وتيسير سيرورة اندماجها داخل المجتمع المغربي كمجتمع استقبال. كما يمكن أن تتحول الهوية الدينية للمهاجر أحيانا إلى محدد رفض وإقصاء من طرف بلد المهجر.

وبما أن البحث العلمي لا يجب أن يخلو من أهمية، فنظرا لتزايد أعداد المهاجرين من دول الساحل وجنوب الصحراء الوافدين إلى المغرب عموما، بشكل أكثر عيانية (visibilité)، خصوصا في مدينة إنزكان، وما نتج عنه من ضروب التفاعلات المختلفة سواء فيما بين هذه الفئة، وبينها وأفراد بلد المهجر (بن بيه،2016، ص202). أضحت مسألة الاندماج الاجتماعي وعلاقته بالانتماءات الدينية-الروحية والهوياتية للمهاجرين جديرة بالاهتمام، خصوصا من خلال الوقوف على تأثير التصوف الإفريقي في المهجر ودوره في تعزيز الهوية الروحية للجاليات الإفريقية.

وما يزيد من أهمية هذه الدراسة، أنها تلقي الضوء على الحياة اليومية للمهاجر الإفريقي داخل المجتمع المغربي، وتكشف اللثام عن واقعه اليومي، الذي نظرا لتحديات العبور اضطر إلى الاستقرار بمنطقة أكادير والنواحي (المقابلات الميداني) . مما يساعد على بناء أساس علمي للمهتمين بشؤون المهاجرين من جنوب الصحراء في الحقل السوسيولوجي بالمغرب سيما وأننا نفتقر على حسب اطلاعنا لدراسة سوسيولوجية اهتمت بدور الدين في سيرورة اندماج مهاجري جنوب الصحراء بالمغرب (N. Harrami, 2011, p185-202؛ إن لم يكن الأمر كذلك في المغرب عامة، فهو واقع جهة سوس ماسة. لهذا فهدف هذه الدراسة العلمي هو تقديم إضافة علمية في هذا المجال المرتبط بسوسيولوجيا الهجرة بوجه عام، والديناميات المجتمعية عبر حدود المغرب والغرب الأفريقي بشكل خاص.

وللإحاطة بإشكالية الدراسة اعتمدنا في بحثنا هذا على المنهج الكيفي وذلك بغية تفكيك وتحليل سيرورة الاندماج الاجتماعي وعلاقته بالظاهرة الدينية لدى مهاجري دول الساحل السينغاليين في مدينة إنزكان ونواحيها. لذلك وظفنا تقنيتين منهجية، هما الملاحظة الميدانية التي رافقتنا خلال مختلف مراحل الدراسة، بدءا من الاستطلاعات الأولية لميدان البحث. بواسطتها تمكنا من ملاحظة سلوكيات المهاجرين وأمكنة تواجدهم بمدينة إنزكان، وكذا معاينة ورصد مختلف الطقوس الدينية وأشكال التفاعلات الصادرة عن عينة الدراسة من المهاجرين، سيما داخل الزوايا، وكذا في الفضاء العام أثناء ممارستهم للتجارة على وجه الخصوص.

إن قيامنا بالملاحظة في إطار الاستطلاعات الأولية لمنطقة البحث، أظهر لنا أن طبيعة المجتمع المدروس والفئة المستهدفة، تفرض علينا الاتصال المباشر معها باعتبارها مصدرا للمعطيات الميدانية. ولتجسيد هذا وجدنا أن الأسلوب المناسب في هذا الإطار هو المقابلة شبه الموجهة لرصد مختلف السلوكيات والتفاعلات الصادرة عن المهاجرين السينغاليين وردود أفعالهم. وإجراء مقابلات مع مختلف الفاعلين الذين يمكنهم تقديم الإضافة في هذا العمل، ولعل أهمهم مسؤولو الزوايا من نُظّار ومُقَدّمين. لذلك قمنا بإجراء أربعة عشر مقابلة تشمل تجارب حية لمهاجرين سينغاليين من كلا الجنسين، لعب الدين دورا أساسيا بالنسبة لهم في اندماجهم الاجتماعي. وجدير بالذكر، أن هذه المقابلات مكنتنا من الوقوف عند أثر الانتماء الديني خصوصا الزوايا التيجانية والمريدية على سيرورة الاندماج لدى المهاجرين.

هذا، وتميزت عينة الدراسة بالتنوع إذ توزعت بين مختلف أحياء مدينة إنزكان، وبالزوايا حيث يمارسون طقوسهم الدينية (تراست، الجرف، زنقة المدارس، حي الشهداء بآيت ملول...). أما الطريقة التي تم اعتمادها في الوصول إلى هذه الفئات فقد ارتكزت بالأساس على ما يسمى "كرة الثلج".

المحور الأول: مدخل نظري ومفاهيمي للدراسة

1- مسألة المفاهيم

اعتمدنا في هذا البحث على ثلاثة مفاهيم رئيسية وهي: الهجرة، الدين، الاندماج الاجتماعي، وكل مفهوم من هذه المفاهيم سيتم عرضه وتحديده وفق الإطار العام للدراسة.

يعود مصطلح **الهجرة** في اللغة كما ورد في معجم المعاني الجامع، إلى مصدر الفعل هاجر، وتجمع على هِجرات، وهي خروج الفرد من أرض وانتقاله إلى أرض أخرى بهدف الحصول على الأمان والرزق، أو هي انتقال المرء من بلدٍ إلى بلدٍ آخر ليس مواطناً فيه ليعيش فيه بصفةٍ دائمةٍ (معجم المعاني، تعريف الهجرة، بدون تاريخ) .

لقد وظف عبد المالك صياد في سياق دراسته للهجرة مصطلحين هما؛ الأول Immigration يمكن ترجمته إلى الهجرة، وهو انتقال من البلد الأصلي نحو بلد آخر. أما المصطلح الثاني Emigration، والذي يمكن ترجمته إلى مصطلح الغربة، ويعني التواجد والعيش في البلد المستقبل (عبد الله بلعباس، 2013، ص 25-38). إذن فالهجرة حسب عبد المالك صياد تكون دائما من البلد الأصلي نحو بلد الاستقبال، وتكون غربة في بلد مستقبل، فيكون المنتقل مهاجرا من بلده الأصلي ليصبح مغتربا في بلد مستقبل له. أما المصطلح الثالث Migration هو الانتقال من مكان لآخر داخل نفس البلد، كأن يهاجر الإنسان من الريف إلى الحضر، أو من مدينة إلى أخرى، داخل البلد الواحد دون أن يتجاوز حدوده.

على غرار التحديدات السابقة، يمكن صياغة تعريف إجرائي لمفهوم مهاجري جنوب الصحراء بإنزكان؛ يقصد به "أولئك الأشخاص والمواطنين المتحدرين من دول إفريقيا جنوب الصحراء والقاطنين بمدينة إنزكان والنواحي، سواء بصفة قانونية أو غير قانونية، سواء الذين يتخذون من المدينة كمكان

للاستقرار ومقصد دائم، أو الذين يجعلون منها محطة عبور نحو مدينة أخرى أو تجاه الضفة الأوربية".

أما **الدين** من الناحية اللغوية؛ فنجده في العربيّة من الدّيْــن. دان له أي أطاعه. الدّين طاعة؛ يقال دان له يدين دِينا إذا أصحب وانقاد وطاع. وأمّا كلمة "Religion" فيمكن أن تكون متأتّــية من الفعل اللاّتينيّ "religare" الذي يعني "ربط" أو "وصل، أو اتّــصل" (بالله) وقد تكون مشتقّــة من كلمة لاتينيّة أخرى، "religere" التي تعني "حصد، وجمع وأدّى بعناية" تعبيرا عن اتّــباع التقاليد والتّــنفيذ الدّقيق للطقوس (بن عشمان، 2008).

واصطلاحا، ينطلق علم الاجتماع من تحديد بسيط للدين، أو للظاهرة الدينية على حد تعبير إميل دوركايم، مفاده أن الدين " هو مجموع الأفكار والمعتقدات التي تؤلفها أو تتبناها جماعة معينة من البشر حول الحياة والكون، وتعتمدها في تنظيم سلوكاتها الطبيعية والاجتماعية والسياسية، إنها معرفة يمكن أن تقوم على التسليم بوجود كائنات ما ورائية أو عناصر طبيعية تتحكم في مجرى الأحداث وفي صناعتها".

إنّ المقاربة السوسيولوجية للدين، تنظر إلى الظاهرة الدينية كظاهرة اجتماعية بما تحمله من خصائص ومميزات؛ (الإبراهيمي، 2013، ص1). ومن هذا المنطلق، فالظاهرة الدينية توجد خارج وعي الأفراد ومتعالية عليهم، لأن وجودها سابق على وجودهم، وقدراتهم لا تسعفهم أبدا في بناء أو تشكيل أبسط ظاهرة اجتماعية، كما أنها تمارس إكراها على الأفراد ما داموا لا يجدون بدا من إطاعة شكل الممارسة الذي تفرضه الجماعة أو المجموعة الاجتماعية التي

يعيشون ضمنها، حتى لو كان ذلك الفعل مخالفا لتعاليم الدين أو المذهب الذين يدينون به (زيارة الأضرحة في المجتمع المغربي).

ولعل الاهتمام السوسيولوجي المبكر بالدين[2]، كان مع إميل دوركايم من خلال مؤلفه " الأشكال الأولية للحياة الدينية"(1913)[3]، والذي خصه لإبراز موقفه السوسيولوجي بخصوص الدين، باعتبار الدين ظاهرة اجتماعية تعكس طبيعة التنظيم الاجتماعي السائدة في مجتمع بعينه، وطبيعة الوعي الجمعي السائدة داخله. لا سيما أن " فكرة المجتمع هي التي تؤسس روح الدين والتمثلات الدينية ليست إلا تمثلات جماعية، تكشف عن وقائع جماعية. والطقوس الدينية ليست إلا طرقا للفعل والسلوك، تولد داخل جماعة معينة، وتهدف إلى الحفاظ على أو إثارة حالات ذهنية جماعية.

إن ما يستدعي الاهتمام كذلك في إطار الحديث عن الدين، هو كونه مؤسسة اجتماعية، يلعب أدوار مهمة بالنسبة للأفراد داخل المجتمع، وتتم ممارسة هذه الأدوار عبر مجموعة من القنوات والمؤسسات الفرعية؛ وتعتبر الزوايا بتعددها وتنوعها من بين أهم هذه المؤسسات والتي تضطلع بهذه الأدوار في هذا

[2] لا أحد ينكر الإسهام الكبير الذي دفع به دوركايم في التأسيس لفهم جديد للظاهرة الدينية، غير أنه ليس الوحيد في هذا المجال؛ إذ يعتبر كذلك ماكس فيبر من علماء الاجتماع المؤسسين لسيوسيولوجيا الدين بألمانيا، ولعل كتابه المهم في هذا المجال هو "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، وناقش فيه فكرة شغلت باله متمثلة في " نزع السحر عن العالم".

[3] إن القول بذلك ليس معناه أن إميل دوركايم لم يتناول الدين في كتاباته الأولى، بحيث أشار في كتابه "قواعد المنهج في علم الاجتماع" إلى قاعدة "الإكراه والإلزام"، فالفرد يجد نفسه أمام قوة خارجية تفرض عليه الخضوع والامتثال ومن بينها الدين، كما هو الشأن في كتابه "الانتحار" والذي أشار فيه إلى تأثير الدين على حياة الأفراد حين تناوله للجماعات الكاثوليكية والبروتستانتية وعلاقتهما بظاهرة الانتحار.

الإطار، إذ نجد مثلا؛ الزاوية القادرية، المريدية[4]، الشاذلية، التيجانية[5].. لكن نظرا لاعتبارات منهجية سنركز الاهتمام في بحثنا هذا على كل من الزاوية التيجانية والزاوية المريدية.

وتتعدد معاني لفظ **الاندماج** في المعاجم اللغوية، فمن خلال البحث عن "دمج" في لسان العرب لابن منظور تبين ما يلي: دمج الأمر يدمج دموجا: استقام، وأمر دماج ودماج: مستقيم، وتدامجوا على الشيء: اجتمعوا. ودامجه عليهم دماجا: جامعه. وأدمج الحبل: أجاد فتله؛ وقيل: أحكم فتله في رقة.

4 هي طريقة صوفية سنغالية تأسست على يد الشيخ أحمدو بامبا في أواخر القرن التاسع عشر متفرعة من الطريقة القادرية، متخذة معظم أتباعها من قبيلة الولوف، التي تسكن جنوب السنغال. تأصلت هذه الطريقة بين أفراد هذه القبيلة حتى أصبح لفظ مريدي مرادف لمعنى الإسلام عندهم. أما تاريخ ظهورها، فيرى الدكتور "محمد غالاي أنجاي"، أنها تأسست سنة 1883 عندما قال "بامبا" لتلاميذه: " ألا من صحبنا للتعلم، فلينظر لنفسه، وليذهب حيث شاء وليا ولجنسه، ومن أراد ما أردنا فليسر لسيرنا، وليقم بأمرنا ". وانطلاقا من هذه الكلمات نشأت المريدية كحركة إصلاحية في التربية والتعليم، هكذا تم إدخال التربية بالهمة، كعنصر جديد في المدارس التقليدية، التي كانت تسمى آنذاك دارا. ينظر في هذا الإطار: محمد أنجاي غالاي، الشيخ أحمد بمبا سبيل السلام، مطبوعات نادي الوعي المريدي بروكسيل، 2011.

5 التيجانية طريقة دينية صوفية، سميت بالتيجانية نسبة إلى مؤسسها أبي العباس أحمد بن محمد التجاني، وتعد من أحدث الطرق الصوفية والأكثر انتشاراً في إفريقيا والعالم. يعود ميلادها إلى نهاية القرن12هـ/18م بمنطقة شمال إفريقيا، أضيفت إلى الطرق الصوفية الأخرى التي كانت منتشرة آنذاك؛ إنها الطريقة التيجانية التي ظهرت في ظروف صعبة كان أبرزها توتر العلاقات بين السلطة العثمانية والطرق الصوفية لحد القطيعة وإعلان الحرب. الأمر الذي أرغم الشيخ أحمد التجاني على الهجرة فكان ذلك سبباً في انتشار الطريقة من شمال إفريقيا إلى غرب إفريقيا، لتجد في هذا الأخير المحضن الثاني لها، وقد ساعدت حركتي التجارة والتنقلات البشرية على إدخال الطريقة إلى السودان الغربي خاصة إلى السنغال ومنها إلى المناطق الأخرى. ينظر في هذا السياق: شيخ لعرج، موقف الطريقة التيجانية من قضايا الاستعمار الكبرى في شمال وغرب إفريقيا، رسالة دكتوراه معهد التاريخ، جامعة احمد بن بلة، وهران، 2016-2017، ص12.

ويعني أيضا "دخل في الشيء واستحكم فيه"(ابن منظور،1999، ص401-400).

في حين من الناحية الاصطلاحية، فمفهوم الاندماج الاجتماعي متعدد المعاني بامتياز، فهو يعني سوسيولوجيا عملية اجتماعية تأخذ صورتين في نفس الوقت، فهي هدف (سياسات الاندماج) من جهة، ورهان سياسي (أزمة نموذج الاندماج) من جهة ثانية. وفي هذا الصدد يجد الباحث في علم الاجتماع (Scnapper, 2003, P14)عند اشتغاله بمسألة الاندماج بكل أبعاده أمام صعوبة تحديد المفهوم بحيث يكتنف لفظ integration الكثير من الغموض، لأنه ينتمي في الوقت نفسه إلى اللغة السياسية واللغة السوسيولوجية، إضافة إلى ارتباطه بالممارسات السياسية والنقاشات المجتمعية المثارة حول قضايا الهجرة (إدماج المهاجرين) والتعدد الثقافي (الهوية الثقافية)، خصوصا في بعض المجتمعات الغربية التي سنت تدابير وأنشأت وزارات أو مصالح حكومية خاصة بالهجرة والاندماج الاجتماعي.

ويقصد بمفهوم الاندماج الاجتماعي[6] سوسيولوجيا، العملية الاجتماعية التي تمكن الأفراد من الانصهار في مجتمعاتهم، أفقيا بتمثل قيمها، عاداتها،

[6] يكاد يجمع الباحثين المهتمين بقضية الاندماج الاجتماعي بأن الجذور الفكرية لهذا المفهوم ترجع إلى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وقد اتضح ذلك بشكل خاص من خلال كتابات إميل دوركايم (1858-1917) "في تقسيم العمل الاجتماعي De la division du travail sociale"،" الانتحار"؛ تم طرح فكرة عملية التضامن الاجتماعي كنقطة أساسية ومحورية للعلم الجديد (علم الاجتماع)، والذي يمثل شبكة الروابط الاجتماعية التي تشد أفراد المجتمع إلى بعضهم البعض، والتي

وأنماط عيشها، وعموديا باكتساب هوية سياسية تعزز انتسابهم لمؤسسة الدولة وتوطد ولاءهم لها (مالكي، 2014، ص667).

لقد خلف دوركايم إرثا معرفيا هاما بخصوص سوسيولوجيا الاندماج الاجتماعي، فمن خلال دراسته للانتحار برز مفهوم الاندماج كمفهوم مركزي، حيث ربط بين الانتحار كظاهرة اجتماعية مرضية بدرجة اندماج الفرد داخل الجماعة أو المجتمع. لقد توصل إلى أنه كلما كانت درجة الاندماج الاجتماعي كبيرة كان معدل الانتحار أقل والعكس صحيح. وقد اعتمد العديد من المفكرين على نظرية دوركايم حول الاندماج الاجتماعي، في تحديد مفهوم الاندماج، ومن بين هؤلاء نجد فيليب بسنارد Philipe Besnard، "نقول على جماعة اجتماعية بأنها مندمجة إذا كان أعضاؤها"(بوخريص، ص9):

1 -يمتلكون وعيا مشتركا، ويتقاسمون المشاعر والمعتقدات والممارسات نفسها.

2 -يتفاعلون فيما بينهم.

3-يشعرون أن لهم هدفا مشتركا يسعون إليه".

ونفس الشيء نجده عند كوسون Cusson (2008)عند تحديده لمفهوم الاندماج الاجتماعي، إذ يعرفه" بنوعية العلاقات التي تربط الأفراد داخل الجماعة بالإضافة إلى درجة التزامهم بقيمها ومعاييرها".

تشكل بابا من أبواب الاندماج الاجتماعي، بحيث يعتبر دوركايم أن المجتمع والاندماج الاجتماعي يشكلان وجهان لعملة واحدة.

وعلى المستوى الإجرائي، فنقصد بالاندماج الاجتماعي سيرورة التكيف المتبادل لمسارين سوسيو-ثقافيين، من خلال توحد مهاجري جنوب الصحراء في مساواة مع مواطني بلد المغرب كبلد استقبال، على مستوى الحقوق والواجبات وفرص العمل، دون فقدان ثقافة بلدهم الأصلي، مما يجعلهم يلقون قبولا اجتماعيا.

2- البراديغمات السوسيولوجية للهجرة

تعرف الورقة البحثية التي نحن بصددها، تقاطعا بين العديد من الحقول المعرفية، لذلك ارتأينا أن نؤطرها في حقل سوسيولوجيا الهجرة والحدود. بناء على ذلك، سنحاول في هذا الإطار أن نعطي لمحة تاريخية عن البدايات الأولى لتشكل حقل سوسيولوجيا الهجرة مع مدرسة شيكاغو، وما خلفته من إرث في هذا المجال. ثم أهم المقاربات النظرية لسوسيولوجيا الهجرة معها، وذلك بالتركيز على المقاربة الإثنوغرافية للهجرة مع "وليان إسحاق طوماس" و "فلوريان زنانيكي"، والمقاربة الإيكولوجية للهجرة مع "روبرت بارك".

أ-مدرسة شيكاغو وسوسيولوجيا الهجرة

تعتبر سوسيولوجيا الهجرة من بين فروع علم الاجتماع المعاصر، والذي ظهر مع مدرسة شيكاغو خلال سبعينيات القرن الماضي بأروبا. يهتم بدراسة تأثيرات وانعكاسات توافد المهاجرين على مجتمع الاستقبال والعبور، والمشاكل التي يخلفها عدم الاندماج، بناء على براديغمات وأنساق أيديولوجية للدول المستفيدة والمستهلكة للهجرات ولهذه المجموعات البشرية. لقد حقق هذا العلم تراكما بفعل القلق الذي يخلفه الوجود المزعج للمهاجرين باعتبارهم

أجانب في بلد ما، وترجم هذا على شكل كتابات اشتهرت بأدبيات الهجرة خصوصا في مجال الإعلام والصحافة وأيضا في النصوص القانونية والروائية والسينمائية، ويبرز صدى هذه الكتابات بشكل كبير في مجال العلوم الاجتماعية (القانون، علم السياسة، التاريخ والجغرافيا، الديمغرافيا، الاقتصاد، علم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا...). لقد حاولت هذه العلوم المختلفة وصف وتفسير ظاهرة الهجرة في جوانبها وتحقيق التراكم المعرفي الذي يسمح بصياغة نموذج معرفي يفسرها.

يمكن القول إن سوسيولوجيا الهجرة هي البنت الشرعية لمدرسة شيكاغو، من خلال الأعمال التي أنتجت في الفترة التي امتدت ما بين الحربين، وهي أعمال إمبريقية بالأساس، اتخذت من الولايات الأمريكية ميدانا لها. إن التيمة التي اشتغلت حولها مدرسة شيكاغو خلال هذه المرحلة تتركز حول مقاربة العلاقات المعقدة التي تربط بين الناس في عالم متحول تحت تأثير إفرازات التصنيع. وكما هو الشأن عند "دوركايم"، فإن الباحثين الأمريكيين يتناولون المدينة كمختبر اجتماعي، ما جعل أعمالهم عدة منهجية محضة وتأملات نظرية شاهدة على تأسيس إرث سوسيولوجي.

إن عالم الاجتماع يصبو إلى إبراز الدوافع غير الاقتصادية للهجرة وتموضعات الظاهرة في علاقتها بالسياق الاجتماعي التي توجد فيه. لقد بدأ السوسيولوجيون يهتمون بظاهرة هجرة السكان (خصوصا الهجرة الداخلية)، مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين، نظرا لاتساع هذه الظاهرة وما ينتج عنها من مشاكل اجتماعية من قبيل أزمات السكن، الانحراف، الاندماج ...وكانت هذه المشاكل مرتبطة بمتطلبات الظاهرة الصناعية وانتشارها، وما

يتطلبه المجتمع الصناعي الناشئ من يد عاملة عجزت المراكز الحضرية القديمة على توفيرها. ومن تم كانت الهجرات الداخلية في الدول الأوربية مرتبطة آنذاك بالعمل الصناعي، لتصبح فيما بعد عاملا ديناميكيا في تكوين سكان المدن (المالكي، 2015، ص114-115). وفي هذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية استقطبت ظاهرة الهجرة الداخلية اهتمام العديد من الباحثين في مختلف التخصصات.

ويعتبر "روني ديشاك" أن الهجرات يمكن أن تشكل الموضوع المحدد لعلم الاجتماع، ويقول في هذا الصدد (Andrea rea, p19): "كما أن الظواهر النقدية تشكل بالنسبة للاقتصاد القاسم المشترك بالنسبة لعلاقة السوسيولوجيا ككل بسوسيولوجيا الهجرات". وفي هذا الإطار أكد العديد من الباحثين أن التدشين السوسيولوجي للهجرة يعود الفضل فيه إلى علماء الاجتماع الإنجليز، وذلك عائد إلى كون إنجلترا كانت مهد الثورة الصناعية. وعرفت بالتالي هجرة قروية كثيفة من البوادي تجاه المدن والتي نتج عنها تضخم حضري غير مسبوق في تاريخها، لذلك ظهر الاهتمام الفكري الأول بالهجرات في إنجلترا على يد "رفنستاين Ravenstein"(المالكي، 2015، ص 146-168)منذ سنة 1885، والذي يعتبر أول من حاول القيام بتحليل علمي للمعطيات الإحصائية المتعلقة بالهجرات، انطلاقا من حالة إنجلترا وانتهى في أبحاثه إلى صياغة مجموعة من النماذج اعتبرها آنذاك قوانين مفسرة لظاهرة الهجرة. وأهم ما جاء به هو مجموعة من المفاهيم التي لا زالت تؤثر اليوم في السوسيولوجيا وخصوصا مفهوم "الجذب" والطرد".

إن أهمية مدرسة شيكاغو في اعتقاد المالكي (المالكي، 2015) لا تعود فقط إلى مساهمتها الوازنة في إرساء سوسيولوجيا التحضر والهجرة، بفضل ما أنتجته من تراث نظري ومن تقنيات وأدوات منهجية، بل تعود كذلك إلى مساهمتها ضمنيا في التأسيس لعدد من فروع السوسيولوجيا الحديثة (العائلة والجريمة والمشاكل الاجتماعية والتغير الاجتماعي، السياسة...إلخ).

وتظل الإشكاليتان المركزيتان اللتان شغلتا رواد هذه المدرسة، كما يوضح المالكي، هما الهجرة والاندماج من جهة، ثم العلاقة بين الثقافة والمجال الحضري من جهة أخرى. وهما الإشكاليتان اللتان حاول الباحث اختصارهما في هذه الدراسة في مفهوم "التحضر"، على اعتبار أن هذا المفهوم يتضمن بعدين أساسيين: بعد ديموغرافي/مجالي (انتقال الأفراد من البادية إلى المدينة)، ثم بعد سوسيولوجي/ثقافي (مسألة الاندماج، واكتساب الثقافة الحضرية). وذلك ما لا يمكن اختباره، في نظر المالكي (بوخريص، 2019)، إلا بالانتقال من مجال البحث السوسيولوجي النظري إلى مجال البحث الميداني التجريبي لتتبع واختبار إشكالية "التحضر والهجرة" وسيرورة "التنشئة الحضرية" في زمان ومكان مغايرين.

ب-المقاربة الاثنوغرافية للهجرة: "إسحاق طوماس" و"فلوريان زنانيكي"

إن أهم ما يميز مدرسة شيكاغو كاتجاه نظري وإمبريقي أنها تناولت إشكالية الوفود في ثلاثينيات القرن الماضي بتقديم طرح سوسيولوجي وبمقاربة

اثنوغرافية للتحضر والهجرة، هي "الفلاح البولوني في أوروبا وأمريكا"[7] ل "طوماس" و"زنانيكي" ابتداء من عام 1918. وهي الدراسة التي كانت رائدة في استخدام بعض المناهج والأدوات الجديدة آنذاك، كما كانت رائدة في استخدام المعامل الإنساني الذي يأخذ في الاعتبار دائما معاني المشاركين في التفاعل الاجتماعي، وكذلك كانت هذه الدراسة البدايات الأولى للوصف المنظم للمجتمع. ولقد تأثر هؤلاء الرواد في دراستهم للهجرات بالإيكولوجيا وذلك يتضح جليا من خلال تركيزهم على مفاهيم مثل: الاستخلاف، التنافس، الصراع، التوازن، التكيف، والعلاقة بين الموارد والسكان، وقوى الجدب والطرد في المجال...، ومع رواد هذه المدرسة ومن خلال أبحاثهم ودراساتهم ستظهر أسس وملامح مواضيع سوسيولوجيا الهجرة[5] (Sayad, 1999, p448).

[7] هو بحث ميداني مكون من خمسة أجزاء يضم وضعية ونمط العيش للبولونيين في كل من موطنهم الأصل، وبعد ذلك هجرتهم لأمريكا ويرصد أنماط التفاعل وعلاقاتهم مع باقي المهاجرين القادمين من دول أخرى، ومدى قدرة هؤلاء المهاجرين البولونيين على الاندماج والانصهار، وما هي القيم والمعايير الاجتماعية ومظاهر سوء التنظيم الاجتماعي وإعادة التنظيم. وقد اعتمد وليام طوماس وزنانيكي في دراستهما لهذه المواضيع على مقاربة تلبي الحاجة لدراسة هذا الواقع، وذلك من خلال منهجين وهما تقنية دراسة الحالة التي تعتمد على "المنهج البيوغرافي"، وتقنية تحليل المضمون والمعطيات المجمعة وكانت عبارة عن وثائق ورسائل شخصية متبادلة بين المهاجرين البولونيين وذويهم في الوطن الأم. كما تم الاعتماد على وثائق أخرى ومنها مقالات الجرائد ولوائح الانتساب لجمعيات المهاجرين، وتقارير من المحاكم، ومراكز الشرطة. أما التقنية الأخرى التي تم الاعتماد عليها في السيرورة الذاتية أي البيوغرافيا فشكلت ما يقارب من ألف وثيقة. خلقت بداية سوسيولوجيا إمبريقية طبقت "المنهج الكيفي" وجانبا مفاهيميا ونظريا. مما جعله إنجازا رياديا في سوسيولوجيا الهجرة.

ج-المقاربة الايكولوجية للهجرة مع "روبرت بارك"

إن مقاربة "بارك" لموضوع الهجرة، تأسست على مفهومين أساسيين ينتميان في الأصل لحقل الإيكولوجيا. سيعتبر "بارك" الهجرة الإنسانية طبيعية كما هي هجرة النباتات والحيوانات، وبالتالي سيؤكد على أن ظاهرة الهجرة الإنسانية قابلة للدراسة والتناول العلمي. إن الجهاز المفاهيمي للمقاربة الإيكولوجية يرتكز على مفهومين أساسيين وهما: الاستخلاف (succession)والتوازن(équilibre) .

لقد استعمل مفهوم الاستخلاف بهدف إيجاد الأساس النظري لدراسة الهجرات: فما هي الهجرات - يتساءل بارك - إن لم تكن استخلاف جماعة لجماعة أخرى على أرض معينة. إن هذا المفهوم مقتبس من الإيكولوجيا النباتية، ووجد تطبيقاته العلمية في المجهود الذي كان يسعى لإيجاد تبرير علمي لموجات الهجرات الاستيطانية في عهد الاستعمار المباشر الذي شهدته مناطق عدة من العالم في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20، وكذا لتبرير الاستيطان بالعالم الجديد، وهكذا فإن المهاجرين الأوائل لأمريكا جاؤوا لاستخلاف الهنود الحمر في إطار تحولات طبيعية". والاستخلاف حسب بارك لا يرتبط بالمستوى الجغرافي والديموغرافي وحسب، بل يتعداه إلى مستوى الاستخلاف الثقافي المرتبط بثقافة العيش ونمطه. أما المفهوم الإيكولوجي الثاني الذي استلهمه بارك فهو مفهوم التوازن وحاول من خلاله أن يبين أن التنظيم الاجتماعي للناس، المجتمع، يخضع لضوابط وقوانين ملزمة ومنظمة لعلاقاتهم

الاجتماعية، بهدف الحفاظ على التوازن الطبيعي والاجتماعي. ولهذا فالهجرة حسبه هي أولا وقبل كل شيء ظاهرة تعمل على إعادة التوازن للمجتمع.

وبالتالي فظاهرة الهجرة حسب بارك وخصوصا الهجرة الداخلية هي مؤشر على التقدم والتحول والانتقال من وسط طبيعي إلى وسط ثقافي، منطلقا من فرضية تعزز هذا التحليل، مفادها: "إن المدينة هي السكن الطبيعي للإنسان المتحضر. وهذا ما جعله ينظر إلى الفلاح المهاجر للمدينة كفلاح نموذجي عندما يتخلى عن العادات والتقاليد والأعراف الخاصة بمجتمعه مقابل أن يصبح سيد نفسه من خلال عملية "الانصهار" عبر الانتساب إلى القيم والتقاليد والعادات الحضرية (المالكي،2015، ص134-136). فعوض أن يصبح هذا الفلاح المهاجر مشكلا اجتماعيا بالمدينة، يتحول إلى فرد مندمج بالمجتمع الحضري عبر دخوله في نسق من التفاعلات الاجتماعية أو ما يسميه "بدورة العلاقات الإثنية".

ولعل أهم ما يميز سوسيولوجيا الهجرات في مشروع بارك، وفي مدرسة شيكاغو عموما، هو أنها تنظر للهجرة والمهاجر من منظورين اثنين: منظور يعتبر المهاجر الفرد الأكثر نشاطا وإنتاجية وأداة لنقل الثقافة وتقدم الحضارات. ومنظور مضاد يعتبر المهاجر نفسه أداة مساعدة على ظهور وانتشار سوء التنظيم الاجتماعي، كما يتمظهر في الفقر والإجرام والفساد الأخلاقي.

المحور الثاني: نتائج البحث الميداني

إن مجرد إلقاء نظرة خاطفة على خريطة مدينة إنزكان وضواحيها، كافية في اعتقادنا لجعل الباحث في السوسيولوجيا أو على الأقل الذي يحمل همها، يتصور

بعضا من الحركية المجالية والمهنية والاجتماعية ومختلف التفاعلات والديناميات التي يخلقها المهاجرين من دول جنوب الصحراء. فمن المعلوم أن هذه المدينة ذات كثافة حضرية عالية، وأن مناطقها متميزة بجاذبية قوية ناجمة عن تاريخها، موقعها، وخصوصياتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. إن العابر للحدود هو الفرد الذي يترك بلده بشكل إجباري أو اختياري نحو بلد من اختياره أو هو مضطر لجعله كوجهة مؤقتة أو قد تتسم بالديموم، مع المرور بدول أخرى مختلفة عبر الحدود في ظروف بعيدة كل البعد عن الهجرة الطبيعية، حتى لو اختلطت تلك الظروف ببعضها وحلت إحداها محل الأخرى، فهي لا يمكن أن تنفي فكرة كون المغرب عامة ومدينة إنزكان على وجه الخصوص تحولا إلى بلد استقرار وليس محطة استراحة وعبور نحو أوربا فقط. إلا أن هذا التحول يطرح سؤال أسباب استقرار هاته الفئة ومحدداته، وهذا الأمر هو ما سنحاول أن نتطرق إليه في هذا السياق.

1-المغرب كوجهة رئيسية : الوصول والاستقرار

لقد تحول المغرب في الآونة الأخيرة إلى وجهة مفضلة لدى العديد من مهاجري جنوب الصحراء للاستقرار، بعدما كان مجرد محطة عبور للوصول إلى البلدان الأوربية، التي أوصدت أبوابها في وجه كل من أراد دخولها بفعل الإجراءات التي اتخذتها للتشديد على مراقبة الحدود تفاديا لدخول المهاجرين السريين إلى أراضيها. لقد كثفت من الدوريات التي تراقب الحدود البحرية سواء باستعمال المروحيات والطائرات أو عن طريق الزوارق والبواخر التي تحرس الشواطئ الأوربية للحيلولة دون دخول القوارب التي تقل المهاجرين

غير الشرعيين. ونفس الحال بالنسبة للسياجات الحديدية العالية التي تحيط الحدود البرية للمدينتين سبتة ومليلية من طرف السلطات الإسبانية والمغربية على حد سواء، ولعل ما شهدته مدينة الفنيدق المغربية مؤخرا سنة 2024 (15 شتنبر) من أحداث ترتبط بالمحاولات الجماعية للهجرة غير النظامية من قبل مجموعات من الشباب والقاصرين لاقتحام الحدود المغربية الإسبانية، والترويج لأحداث هذه الهجرة الجماعية السرية-المعلنة والتعبئة لها عبر مواقع التواصل الاجتماعي باختلافها لدى مختلف فئات المجتمع بما فيهم الأطفال والقاصرين، خير شاهد على تشديد المراقبة الأمنية.

وعلى عكس ما يتوقعه المهاجر تعدّ هذه المرحلة أي مرحلة الوصول والاستقرار من أصعب المراحل وأطولها وأكثرها تعقيدًا. فعلى الرّغم من أنه قد وصل إلى بر الأمان ولم يعد هناك من مخاطر حقيقية أو مباشرة على حياته، إلا أنه سرعان ما يصطدم المهاجر بالواقع. يكتشف أنّ هذا الأمان أبعد ممّا كان يتصور، وأن الاستقرار والطمأنينة المنشودَين أعقد وأطول مما كان يتخيله، لا بل خلافا لما كان يتخيله. فأغلب المهاجرين رسموا صورة مثالية مبالغ فيها عن هذه المرحلة، ولم يتصوّروا مدى الصعوبات، حتّى في أدق تفاصيل الحياة التي سيلاقونها في هذه التجربة. وهذا البون الشاسع بين الصّورة المتمثلة والواقع، يترك أثرًا كبيرًا في توازنهم النفسي والشخصي. كما يمكن للمهاجر أن يجد أمامه ما كان يتصوره بفعل تواصله المستمر مع أصدقاء له موجودين في البلد الذي يضعه نصب أعينه كهدف ومقصد، وفي هذه الحالة يكون الطريق أمامه واضح المعالم ويطرح إمكانية الاندماج وسهولته. هذا شأن العديد من عينة

الدراسة التي نحن بصددها، وإن هناك جملة من المحددات التي تحدد عملية الاندماج من عدمها والتي سنقف عليها فيما سيأتي.

إن دول الوصول أو كما يسميها البعض مناطق الهجرة الوافدة وبتعبير عبد المالك صياد بلدان الغربة، هي الدول التي تكون المحطة الأخيرة للمهاجرين (بلعباس، 2013). معلوم أن المنطقة المتوسطية لها تقليد عريق في مجال الهجرة، ولكن بفعل تغير الأوضاع الداخلية للبلدان تغيرت معها خارطة تنقلات الأشخاص، فبعدما كانت دول أوروبية عديدة مصدرة للمهاجرين أو دول عبور لهم اكتسبت اليوم صفة دول مستقبلة، مثل: إيطاليا، إسبانيا والبرتغال. تكتسب الدول صفة الوصول أو الاستقرار بفعل الوضعية الاقتصادية والأمنية التي تستهويهم. أما المهاجرين القادمين من إفريقيا جنوب الصحراء، بناء على نتائج الدراسة، فيحاولون الوصول إلى أوروبا مع وجود إمكانية الاستقرار في المغرب بعد تحسن وضعيته الاقتصادية والإجراءات القانونية تجاه هذه الفئة مع التسوية الأخيرة.

2-محددات الاستقرار والاندماج الاجتماعي

إن الوسط له تأثيرات مباشرة على نفسية المهاجر كيفما كان نوعه أو بلده الأصل. ومن هذا المنطلق فالفرد في حياته يبحث دائما عن مكان ملائم لعيش حياته وفق الحد الأدنى من الشروط والإمكانيات المتاحة. لهذا قمنا بجمع معطيات حول سبب اختيار مدينة إنزكان وما جاورها للاستقرار بصفة دائمة، ومدى إمكانية هجرة المبحوث نحو أوربا أو بلد آخر إذا سنحت الفرصة بذلك.

لقد كان الهدف الخفي وراء هذا السؤال هو معرفة نوايا المهاجر ما إذا كان ينوي الاستقرار بالمنطقة خاصة والمغرب عامة أم أنه ينظر له كبلد عبور فقط. وقد كانت النتائج تشير إلى وجود محددات كثيرة لها علاقة بالاستقرار؛ من بينها سن المهاجر، الحالة العائلية؛ ونقصد هنا أن فكرة الهجرة نحو البلدان الأوربية تنعدم بشكل كبير عند المهاجرين المتزوجين خصوصا من ذوي أطفال، وجود دخل للمعيش اليومي، العلاقة الطيبة وحسن معاملة المواطنين المغاربة خصوصا سكان المنطقة والذي يعكس ما يتميز به المجتمع المغربي من قيم التسامح والتضامن مع الغير سواء القريب أو البعيد، وهو ما يظهر جليا فيما تعرفه جل الدول المغربية وعلى رأسها مدينة أكادير الكبير من اكتظاظ لرجال ونساء من أصول أفريقية مختلفة على قارعة الطرقات وداخل الأسواق العمومية كإنزكان وسوق الأحد يستعطفون المارة من أجل تقديم المساعدة المالية بلهجات ولغات محلية عربية وأمازيغية وفرنسية رغبة في تحقيق الأمن الغذائي بالأساس(الدريسي،2024، ص214). فضلا وجود علاقة أخوية بين السينغال والمغرب والمؤسسة في عمقها على ما هو ديني. كل هذا يؤسس لقرار الاستقرار ويساعد على الاندماج والتكيف مع باقي أفراد المجتمع.

ففي إطار سؤاله عن إمكانية هجرته إلى أوربا، أجاب "مصطفى" (مصطفى، مقابلة شخصية رقم 1، مدينة إنزكان، 2022/03/20) صاحب 42 سنة، أنه لا يفكر في الهجرة نحو أوربا بل يريد الاستقرار بالمغرب، مبررا ذلك بأن سنه ووضعيته الاجتماعية لكونه متزوجا وذا أطفال لا يحتمل المغامرة بشكل غير شرعي "الحريك". فإن استدعت الضرورة هجرته نحو البلدان الأوربية ستكون بشكل قانوني وفقط من أجل العمل والعودة، وأنه يؤمن بأن الرزق مكتوب عند

الله لذلك فالأمر لا يستدعي المغامرة من أجله. وبخصوص علاقته مع المغاربة فهي جيدة جدا، حيث يشعر أنه أصبح مغربي **"نص مغربي ونص سينغالي"**، بل ينعته أصدقاؤه السنغاليون في المنزل بأنه أصبح مغربيا ولم يعد سينغاليا خصوصا عندما يناقش الأمور السياسية بالمغرب. وله أصدقاء مغاربة دائما ما يتصلون به بشكل مستمر وهناك منهم من يلتقون به، يتواصل معهم ب "الدارجة المغربية" لأنه يتقن التحدث بها، وأحيانا بالفرنسية. في حين يتواصل مع زملائه من جنوب الصحراء سواء كانوا من السينغال أو غير ذلك عبر لغة " الولوف"(Wolof)[8] وإذا كانوا يجيدون العربية فهو يتواصل معهم بها أحيانا.

ونفس الأمر أكدته المبحوثة "خديجتو"(خديجتو، مقابلة شخصية رقم 2، مدينة إنزكان، 2022/05/18)، والتي صرحت أنها تتردد من حين لآخر بين السينغال والمغرب، وترفض بشكل قطعي فكرة الهجرة نحو أوربا، تحت مبرر أن لها مشروعا ولها أسرة ومسؤولية وليست لوحدها كي تفكر في ذلك، تقول في هذا السياق:

" c ‘est moi seul, pas de problème, mais j’ai un projet et j’ai marie et j’ai des enfants… ."

فعلاقتها بالمغاربة هنا في بلد الاستقبال جيدة، لها أصدقاء مغاربة وزبائن كثر دائما ما يترددون عليها بشكل متكرر ومستمر. تتواصل معهم بالفرنسية إذا كانوا يجيدون ذلك، وإذا كانوا لا يتحدثون الفرنسية تتواصل معهم بالدارجة المغربية بالرغم من أنها لا تتقنها بشكل جيد بل تحاول ذلك وفقط، ومصرة على

[8] لغة الولوف (Wolof) هي لغة تنتمي إلى عائلة اللغات النيجر-كونغو، وهي الأكثر انتشارًا في السنغال، حيث تُعتبر لغة التواصل المشترك (lingua franca)، كما تُستخدم أيضًا في غامبيا وموريتانيا.

تعلمها. أما اللغة التي تتواصل بها مع زملائها من السينغال بشكل مستمر فهي الولوف وتأتي الفرنسية في المرتبة الثانية ثم الدارجة المغربية أحيانا بنسبة قليلة. فهي الآن تشعر أنها مغربية لا فرق بينها وبين المغاربة، خصوصا أن ابنها الأصغر يجيد تحدث الدارجة المغربية بطلاقة. ونفس الفكرة تمتلكها شقيقتها "مريم" (مريم، مقابلة شخصية رقم 3، إنزكان، 18/05/ 2022). والتي تعود للسينغال مرة في السنة، والتي نفت بشكل قطعي فكرة الهجرة نحو أوربا ووصفت ذلك بأنه "bizarre"[9]، لأنها أسست لعلاقات اجتماعية مع المغاربة، لها أصدقاء مقربين خصوصا من الزبائن، بل وأصبح لها إحساس بأنها مغربية بعد هذه السنوات التي قضتها هنا بالمغرب. تتحدث الدارجة المغربية قليلا " **شوية "،** وعبرت عن رغبتها في تعلمها وإتقانها.

هذا يتأكد بشكل جلي عندما تتاح للمهاجر فرصة الهجرة نحو أوربا فعليا وواقعيا، من خلال امتلاك أوراق الهجرة القانونية وكذا يسر الوضعية المادية للمعني بالأمر. هذا ما اتضح مع المرأة السينغالية-الموريتانية "منينة" (منينة، مقابلة شخصية رقم 4، إنزكان/فندق المبحوثة،2022/05/27). المشهورة لدى أوساط المهاجرين ب «ماما أفريكا"، التي صرحت أنها تمتلك "جواز السفر" للذهاب إلى فرنسا، بحكم ذهابها إلى هناك مرات عديدة. ودائما ما تتلقى دعوات من طرف عائلتها المقربة للذهاب إلى فرنسا. لكن دائما تواجه ذلك بالرفض، مبررة ذلك أنها تشعر بارتياح كبير هنا بالمغرب، خصوصا أنها تستقر

[9] كلمة bizarre في الإنجليزية تعني غريب أو عجيب بطريقة غير مألوفة أو غير طبيعية. تُستخدم لوصف شيء أو شخص غير عادي أو يتصرف بطريقة غير متوقعة. وحسب سياق المقابلة، فتعني بها أن قرار الهجرة غير مفكر فيه حاليا إلى حدود استجوابها.

هنا لمدة عشر سنوات (منذ سنة 2012). إنها تفضل أن تقضي شهر رمضان بالمغرب لأنها تحب الأجواء هنا، وهو ما عبرت عنه: **"عزيز عليا رمضان فالمغرب، اعجبوني الأجواء...** ". والمكان الذي تتمنى أن تذهب إليه هو الحج وزيارة قبر رسول الإسلام محمد، أما غير ذلك فهي تمتنع. تتحدث الدارجة المغربية بطلاقة بحكم أنها موريتانية، وعلاقتها جد جيدة مع المغاربة والتجار خصوصا بسوق إنزكان، وتجلى ذلك من خلال تقديم شتى المساعدات جراء فترة الحجر الصحي بفعل فيروس كورنا، والتي شملت مبالغ مالية ومختلف المواد الغذائية وبكميات كبيرة من أجل تقديمها للمهاجرين القاطنين عندها.

إن مواجهة مشكل رفض المغاربة لكراء بيوتهم لمهاجري جنوب الصحراء باختلاف جنسياتهم في السنوات الفارطة، وإغلاق أرباب الفنادق لأبوابها أمامهم بدعوى أنها مملوءة عن آخرها، أو قبول ذلك في حالات نادرة وبشروط معقدة لعل أهمها الرفع الصارخ في سومة الكراء اليومي للغرفة في وجه هاته الفئة بفندق بسيط جدا -مما أدى إلى موت مهاجر سينغالي كان له التزام علاجي مع طبيب هنا بإنزكان بسبب انخفاض درجة الحرارة نتيجة مبيته اليومي أمام سوق الثلاثاء. وذلك راجع إلى رفض أصحاب الفنادق لاستقباله- جعلها تفكر جديا في إيجاد حل لمثل هذه المعضلات، وفي نفس الوقت سيكون بمثابة مشروع لمدخولها اليومي. ومن هنا أتت فكرة اكتراء منزل لاستقبالهم بثمن رمزي ومعقول؛ لذلك في البداية بدأت مشروعها هذا باكتراء شقة لسنتين تقريبا، ثم بعدها تمكنت من توسيع المشروع عبر اكتراء منزل متكون من ثلاثة طوابق، بفعل تدخل ممثلي الداخلية على حد تعبيرها "العمالة" إثر تواصل شخصيات سينغالية تيجانية مهمة بالمسؤولين بالمغرب، مقابل مبلغ مقدر

بثمانية وثمانون ألفا للشهر (4400 درهم). ومن تم أضحت تستقبل مهاجري جنوب الصحراء باختلاف جنسهم وجنسياتهم وانتماءاتهم الدينية بفندقها غير المصنف هذا الكائن بزنقة المدارس بإنزكان. مخصصة للإناث شقة والباقي للذكور مقابل ثمن رمزي؛ يتجلى في عشرة دراهم للمبيت، وخمسة عشر درهما من أجل الاستفادة من وجبتين من الطعام في اليوم. وشهدت السومة ارتفاعا بسبب ارتفاع أسعار المواد الغذائية لتصل إلى ثلاثون درهما عوض خمسة وعشرين درهما.

هذا وتقدم "منينة" مساعدات وخدمات عديدة، من قبيل أنها كانت تستقبل المهاجرين الجدد بدون مقابل لمدة أسبوع لتقلص المدة إلى ثلاثة أيام من دون مقابل، بل الأكثر من ذلك تساعدهم على إيجاد عمل لهم من خلال تعبئة معارفها من أرباب الضيعات الفلاحية والشركات، كما كانت تقدم لهم سلع تشمل مجوهرات ولوازم التزيين والهواتف من أجل عرضها وبيعها.

وهذا "فودين"(فودين، مقابلة شخصية رقم 5، مدينة إنزكان، 2022/05/18)سينغالي الجنسية ومسلم تيجاني الطريقة، يعود إلى السينغال مرتين في السنة تقريبا، من أجل تصدير بعض السلع إلى هناك وجلب أخرى، مع اغتنام الفرصة لزيارة العائلة ومساعدتهم ماديا. كما أنه لا يفكر بتاتا في الهجرة نحو أوربا بل جعل من المغرب بلد استقرار ومقصد، بحكم تحمله لمسؤولية الأسرة والأبناء من جهة، وارتياحه التام بالمغرب من جهة ثانية. كما أن علاقته مع المغاربة جيدة ليست هناك مشاكل أبدا. بل الأكثر من ذلك لقد

تمكن من ربط علاقات صداقة مع العديد من المغاربة، واصفا إياهم بالإخوة الأشقاء واصفا المغرب ببلده الثاني بعد السينغال، وعبر عن هذا:

"C’est normal, le Maroc c’est le deuxième payé après le Sénégal…"

وبخصوص لغة التواصل مع المغاربة، فهو يتقن اللغتين الفرنسية والإنجليزية، فضلا عن تحدثه قليلا بالدارجة المغربية، ولديه رغبة كبيرة في تعلم هذه الأخيرة، لذلك فلغة تواصله مع المغاربة رهينة بمدى دراية الطرف المحاور، في حين يتواصل مع زملائه السينغاليين بلغة الولوف. لقد أضحى لفودين شعور كونه مغربيا لكونه قضى هنا بالمغرب ما يقارب اثنتا عشر سنة. ونفس الأمر نجده مع " عبد الله" الذي مدخوله الآن المعيشي مرتبط ببيع الهواتف ولوازم التجميل للنساء، من مجوهرات وساعات يدوية، الذي أجاب أنه سبق له أن حاول الهجرة مرات عديدة منذ وصوله إلى المغرب أول مرة، لكن كل هاته المحاولات باءت بالفشل. لكنه الآن بعدما تزوج وأصبح له أبناء لم يعد يفكر في الهجرة بتاتا. وفي إطار علاقته بالمغاربة، أجاب أنه على العموم فالناس معادن؛ منهم الطيب ومنهم القبيح، وستجد هذا أينما ذهبت في المغرب والعالم. لقد استطاع أن ينسج علاقات إيجابية وأخوية مع المغاربة، منهم الأصدقاء ومنهم وزملاء العمل ومنهم الزبائن (عبد الله، مقابلة شخصية رقم 7، أيت ملول حي الشهداء/ مقر الزاوية المريدية، 2022/05/31).

كما أشرنا سابقا، فكلما كان المهاجر متزوجا ويملك أسرة كلما قلت حظوظ فكرة خوض تجربة الهجرة نحو أوربا، هذا ما اطلعنا عليه كذلك مع المبحوث "مصطفى" (مصطفى، مقابلة شخصية رقم8، إنزكان، 2022/05/31).

أثناء استجوابه، والذي يتردد على السينغال لرؤية أسرته المتواجدة هناك كلما سمحت له الفرصة بذلك. لقد اختار الاستقرار بالمغرب ولا يفكر في الهجرة إلى أوربا مبررا ذلك بامتلاكه لأسرة وأبناء، ولا يمكنه المغامرة أو خوض تجربة أخرى في بلاد أخرى. وأن علاقته بالمغاربة سواء في الشارع أو زملاء العمل بجوار سوق الثلاثاء بإنزكان طيبة جدا، بمن فيهم الزبناء منهم، يكنون له كل الاحترام والتقدير والتعامل الحسن. يتواصل معهم بالدارجة المغربية لأنه يجيد ذلك، وبالأمازيغية لأنه يتواصل بها بشكل محترم، ثم الفرنسية ثم استدعى الأمر ذلك. وفي هذا السياق يعتز بكونه قضى هنا بالمغرب حوالي واحد وعشرين سنة، الأمر الذي ولد له الشعور ب"تمغريبيت" على حد تعبيره، وهو ما انعكس جليا على طريقة كلامه وحديثه إذ يتحدث الدارجة بطلاقة مع الزبناء أثناء المساومة. هذا الانفتاح على ثقافة ومنظومة قيم المجتمع المغربي كبلد مستقبل، ساعده في عملية الاندماج الاجتماعي، وهذا يتجاوب مع ما أكده "بول كوليير":" الاندماج يحصل من قبل المهاجرين الذي يستوعبون جوانب من ثقافة السكان الأصليين، وكذلك من قبل السكان الأصليين الذي يستوعبون جوانب من ثقافة المهاجرين"(البكوري، محسن،2022 ص177-178). لقد عبر المبحوث في هذا الإطار عن ذلك:**"عندكم واحد المثل شعبي في ثقافتكم قالو ليا واحد صاحبي مغربي، كيقول أن الواحد إلى جا عندكم غريب وكلا ربعين خبزة كيولي مغربي وواحد منكم. هادشي هو لي جرا معايا أنا (ويضحك)...."**.

يتضح مما سبق، إن القول بتحول المغرب إلى بلد مقصد واستقرار بالنسبة لمهاجري جنوب الصحراء في السنوات الأخيرة، هو قول له امتداده على مستوى واقع الحال، خصوصا فئة السينغاليين منهم. لقد أوضحت المقابلات خلال

البحث الميداني أن الكثير من مهاجري جنوب الصحراء السينغاليين جعلوا من المغرب بلد مقصد واستقرار، نظرا لعدة اعتبارات؛ تتنوع بين كون المغرب يشكل فرصة لممارسة التجارة وتحسين الوضعية المادية لهاته الفئة، وجود شبكات اجتماعية تتجلى في معارف المقبل على قرار الهجرة والذي ينقل له أخبار ومعطيات عن البلد، مما يشكل تحفيزا لقرار الهجرة نحو المغرب، وجهة الطلبة السينغاليين من أجل إتمام الدراسات الجامعية والعليا والتتويج بدبلومات وشواهد تخول لهم الاندماج في سوق الشغل وفي وظائف مهمة. فضلا عن كونه بلدا شقيقا للسينغال إذ لا يشعر هؤلاء المهاجرين بالغربة بتاتا مما يسهل سيرورة اندماجهم داخل أطياف المجتمع المغربي. إذ يكفي أن يفصح المهاجر عن أصله السينغالي إلا ويلقى ترحيبا وقبولا من طرف المواطنين المغاربة صغارا وكبارا، وهذا له ارتباط بالعلاقة الروحية والدينية التي تربط السينغال بالمغرب إثر وجود ضريح شيخ الطريقة التيجانية أحمد التيجاني بمدينة فاس، لأن جل السينغاليين مسلم تيجاني الطريقة. وهذا من يفرض ضرورة الاستفهام عن علاقة الدين بمدى تيسير سيرورة الاندماج الاجتماعي لمهاجري جنوب الصحراء بالمغرب خصوصا بمدينة إنزكان ونواحيها.

3- الدين كمحدد للاندماج الاجتماعي في بلدان المهجر

تتكوّن الهوية الدينية لدى الفرد كحالة نفسية (Subjective Status) بمعنى التدين، حين يعتقد بوجود ذات أو ذوات غيبية متعالية، لها شعور واختيار، ولها تصرّف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان، اعتقادًا من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد.

وبعبارة موجزة، يمكن القول إن الهوية الدينية تتكوّن من خلال الإيمان بذات إلهية، جديرة بالطاعة والعبادة (بن جامع،2014). ولعل النصوص الدينية المؤسسة (كالقرآن والسنة بالنسبة للمسلمين، والإنجيل بالنسبة للمسيحيين...) توفر جملة من العلامات والسمات الفارقة للهوية الدينية (Identity Markers). غير أن الأفراد والجماعات قد يختلفون في تمثل هذه الهوية الدينية بمقدار فهمهم وإدراكهم وممارستهم لهذه العلامات، وبمقدار استحضار هذه العلامات، بعضها أو كلها، في مختلف الحالات في بيئتهم الاجتماعية.

والحديث عن الهوية الدينية في سياق بحثنا هذا، مفهوم يكتسي معنى الانتماء الديني للمهاجر وما يقدم عليه نفسه للآخرين المحيطين به سواء من مهاجري جنوب الصحراء أو من مواطني مجتمع الاستقبال ونقصد هنا المغاربة. وما يرتبط بذلك من تيسير العيش المشترك وتلقي قبول من طرفهم، من خلال تسهيل سيرورة الاندماج في بلد المقصد هذا والانخراط في نسق ثقافي مغاير لنسق بلد الأصلي. هذا ما تلعب فيه الزوايا دورا فعالا بالنسبة لهذه الفئة. كما يمكن أن يتحول الانتماء الديني أحيانا إلى عامل رفض وإقصاء لصاحبه من طرف مواطني بلد الاستقبال، الشيء الذي يمكن ان يؤدي إلى تهميش المهاجر من طرف أفراد المجتمع. لذلك سنبرز علاقة الانتماء الديني للمهاجر بسيرورة اندماجه الاجتماعي في المجتمع المغربي، وكيف يساهم في تيسير عملية تكيفه. هذه المحدد الذي سرعان ما يمكن أن يتحول ليعلن عن ذاته كعائق أمام هذه العملية. كما سنركز الاهتمام كذلك على الأدوار التي تضطلع بها الزوايا في بسط

الطريق أمام هاته الفئة من أجل الاندماج داخل أطياف المجتمع المغربي كمجتمع استقرار ومقصد.

أ-الهوية الدينية للمهاجر في بلد المهجر، عامل قبول أم رفض؟

إن الهوية الدينية لمهاجري جنوب الصحراء وما تخلفه لدى المواطنين المغاربة من قبول أو رفض من طرفهم، وجدنا له حضورا قويا لدى مهاجري جنوب الصحراء السينغاليين بمدينة إنزكان. فالانتماء الديني المسلم لهاته الفئة، بالرغم من اختلاف الطريقة الصوفية المتبعة، يجد له قبولا وترحاب من طرف المجتمع المغربي. ففي سياق سؤاله ما إذا كان يجد مانعا في التصريح بانتمائه الديني، أجاب "مصطفى" (المبحوث مصطفى، مقابلة شخصية رقم 1)أنه لا يجد أدنى مشكل في ذلك، لأن علاقة العبد بربه هي علاقة شخصية. وأفاد أنه لاحظ، بل وعايش أنه أحيانا يلتقي بأحد المغاربة يلقي عليه تحية السلام، بعدها مباشرة يسأله عن انتمائه الديني. من هنا يتبين أن المغاربة ينتبهون إلى الانتماء الديني للمهاجر أثناء التعامل معهم: **" كنلقى مع شي مغربي كنقوليه السلام عليكم السلام، كيسولني على الاسم ديالي كنقوليه مصطفى، كيقولي مسلم ولا ماشي مسلم...وكيقولي هذا الاسم مصطفى واش اسمك هنا في المغرب ولا في السينغال، كنقوليه بجوج...".**

وأكد أن هذا يأتي في سياق وجود مهاجرين من جنوب الصحراء بالمغرب يدعون هوية مغلوطة مغايرة لهويتهم وانتمائهم الأصلي، لأن ادعاء هوية دينية إسلامية تلقى قبولا وترحيبا من طرف المغاربة على عكس التصريح بهوية ذات انتماء ديني مسيحي. فمثلا هناك مهاجرون نيجريون ذوو انتماء ديني مسيحي

كاتوليكي، يدعون هنا في المغرب أنهم مسلمون ويعملون على تغيير اسمهم إلى اسم عربي إسلامي كما هو الشأن بالنسبة لأسماء مثل المصطفى، إبراهيم، فاطمة، خديجة...[10]وهذا ما عبر عنه المبحوث عندما قال:" **نعطيك ملاحظة؛ البليبار (95٪) دالمهاجرين النيجيرين والكاميرونيين مسيحيين، ولكن من كيجيو للمغرب كياخذو بعين الاعتبار مسألة أن المغاربة دولة إسلامية، دكشي علاش كيبدلو اسمهم الأصلي إلى اسم عربي ك إبراهيم أو مصطفى أو فاطمة...باش إسهال عليهم إتداخلو مع المغاربة باش اساعدوهوم، لأنه إلى جيت لهنا وقلت ليهم أنا مسيحي مغاديش إساعدوني أو اقدمو لي الصدقة...**"(مصطفى، مقابلة شخصية رقم 1). مما يلاحظ أن فعل الهجرة وتحديات الاندماج الاجتماعي داخل بلدان المهجر، يرغم المهاجر على تبني قيم جديدة ومغايرة لقيمهم، هذه القيم التي قد تتنافى وتتعارض مع قيم بلدان الأصل، خصوصا إذا كان المعتقد الديني ليس إسلاميا. فالعديد منهم يحضر إلى باحات المساجد طلبا للعون والمساعدة عبر ترديد عبارات ذات معنى ديني مغربي "شي بركة، أعطي مسلم صدقة" (الدريسي،2024، ص216). هذه الهوية التي يدعونها قد تمتد لتشمل تغيرات على مستوى الزي واللباس الذي يتحول إلى لباس مغربي أصيل "الكندورة أو الجلباب" خصوصا أيام الجمعة

10 لقد عايشنا أكثر من مرة هذا الأمر بإحدى مقاهي مدينة إنزكان، إذ سبق لنا مصادفة مهاجر نيجيري يقدم نفسه في ورقة على أنه ذو انتماء ديني مسلم، لطلب المساعدة في أحد المقاهي، واستعماله لتلك الطريقة في التواصل راجع إلى عدم إيجاده التحدث بإحدى اللغات المحلية لبلد المهجر. وإليكم ما تتضمنه ورقة التسول المذكورة مع الوصف: "تتصدر الورقة عبارة "السلام عليكم، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، أخوكم عابر سبيل من نيجيريا يحتاج مساعدة الله إرحم الوالدين، يتذيل الورقة ثلاثة صور: علم المغرب، علم نيجريا، علم الأمازيغ".

وخلال شهر رمضانـ لما لهما من رمزية في الثقافة الإسلامية حيث تكثر الصدقة والشفقة على المحتاجين. إن استراتيجيات الاستيعاب من هذا القبيل، قد ينتج عنها صراع في منظومة قيم المهاجر وفي هويته القيمية.

صورة رقم1:

مهاجر نيجيري يقدم نفسه في ورقة على أنه ذو انتماء ديني مسلم، لطلب المساعدة

المصدر: البحث الميداني (صورة مأخوذة من طرف الباحث)

ومن هنا يتبين أن مهاجري جنوب الصحراء ذوي انتماء ديني إسلامي يجدون سهولة في الاندماج الاجتماعي داخل المجتمع المغربي كبلد استقبال، بل ويلقون قبولا كبيرا من طرف المغاربة مما يجعلهم يبدون ارتياحا لهم قولا ومعاملة، مقارنة بالذين لهم انتماء ديني مسيحي أو غير ذلك. ولعل هذا ما يفسر مدى القبول الكبير والمنقطع النظير للمهاجرين السينغاليين من طرف المغاربة.

وحسب تجربتها الخاصة، تؤكد "خديجتو" (خديجتو، مقابلة شخصية رقم 2). هي الأخرى أن هناك العديد من الزبائن المغاربة الذين يترددون عليها يسألونها عن انتمائها الديني قبل اقتناء المجوهرات ولوازم التجميل وباقي السلع التي تعرضها للبيع، مما يبين أهمية الانتماء الديني في عملية الاندماج مرة أخرى:

« Bien sûr, il est premier, et le dernier, la religion est très important dans l'achat et la vente avec les marocains… »

وأكدت أن هناك علاقة وطيدة بين الدين وعملية الاندماج الاجتماعي لمهاجري جنوب الصحراء بالمغرب، فكلما كان المهاجر مسلما كلما كانت حظوظه كبيرة في عملية الاندماج الاجتماعي هنا، وفي مقابل ذلك إذا لم يكن كذلك إلا ويجد صعوبة في الاندماج والقبول من طرف المغاربة لأنهم يحبون من يشبههم. فكلما كان المهاجر مسلما إلا ويلقى استحسانا وتعاطفا كبيرا من طرف مواطني بلد الاستقبال.

ونفس الأمر أكدته لنا المبحوثة "منينة" (المبحوثة منينة، مقابلة شخصية رقم 4). لقد أكدت أن المغاربة ومنذ تواجدها هنا بالمغرب، ويسألونها عن دينها وانتمائها الديني، سواء تعلق الأمر بمغاربة تصادفهم في الشارع والمقهى، أو الزبناء والجيران، وصرحت في هذا السياق: **"كل يوم كل يوم إسولوني، أنت مسلمة ولا مش مسلمة، أقول لهم أنا مسلمة وأدعي معهم...."**.

وأفادت أنها من خلال تجربتها واحتكاكها بالمهاجرين الذين يترددون على منزلها، أشارت إلى أن المهاجر المسلم يتلقى قبولا واستعطافا من طرف المغاربة،

خصوصا أولئك المهاجرين الذين يتسولون الصدقات في الشوارع والأماكن العامة:" **المغاربة سخيين بزاف مع المهاجرين المسلمين، إساعدوهوم وإفرحو بيهم، أعطوهم ها مئة درهم ها خمسين ها مئتين...**". وهو ما تكرر مع المستجوب "فودين"(فودين، مقابلة شخصية رقم 5) الذي أفاد أن المغاربة يهتمون بالانتماء الديني للمهاجر، إذ كم من مرة يسألونه ما إذا كان مسلما أم ليس كذلك خصوصا بعد معرفة اسمه الذي يعتبر غريبا بالنسبة للثقافة المغربية والعربية، مشيرا إلى أن المواطن المغربي يرتاح للمهاجر المسلم الشبيه له في اعتقاده الديني. ومن هنا يمكن القول إن هناك علاقة وطيدة بين الانتماء الديني للمهاجر ومدى اندماجه داخل المجتمع المغربي المسلم، ويقول في هذا الإطار:

« Bien sûr il ‘ya la relation entre la religion de migrant, et l’intégration ,par ce que migrant musulman n’ est pas comme catholique par exemple ... »

وهذا الأمر سمعنا به عند المبحوث " عبد الله"(عبد الله، مقابلة شخصية رقم 7)؛ والذي أكد هو الآخر أن الزبناء المغاربة أو غيرهم، يهتمون بجنسية المهاجر أثناء عملية البيع والشراء، وغالبا ما يسألونه ما إذا كان سينغاليا. وبخصوص رب العمل فهو أحيانا ينتبه إلى جنسية المهاجر وانتمائه الديني، لكن في غالبية الأحيان فهو يسأل عن مدى توفره عن الوثائق التي تبين أنه في وضعية قانونية، والتي تشمل على حد تعبيره كل من جواز السفر ثمن بطاقة الإقامة: "**...إلى بغيتي تخدم عندو غايقوليك واش عندك الباسبور واش عندك كارت سيجور، على معندك ديك الساعة غاتشوف اش غاتدير...ضروري غاتسني**

الكونطرا ديالك ولا شي حاجة باش إلى وقع شي مشكل بيناتكوم تكون قانوني...ومرة مرة كيسول عن الدين ديالك ...".

وفي إطار سؤاله عن وجود علاقة بين الانتماء الديني للمهاجر وعملية اندماج المهاجر داخل المجتمع المغربي، أكد أن المهاجر من جنوب الصحراء ذو انتماء ديني مسلم يسهل عليه الاندماج الاجتماعي هنا بالمغرب مقارنة بالآخرين من ذوي انتماء ديني مسيحي أو يهودي، لأن المجتمع المغربي بالرغم من ادعائه الانفتاح والتحرر إلا أن هناك مجموعة من الثوابت التي لا يمكن زعزعتها أو المساس بها، والتي من أهمها الجانب الديني والروحي.

وما أشرنا إليه سابقا، نجد حضورا له كذلك بين الفئة المثقفة المتمثلة في طلبة الجامعة؛ إذ صرح الطالب "محمد"(محمد، مقابلة شخصية رقم 9، أيت ملول/ مقر الزاوية المريدية، 2022/05/31)أن زملاء الدراسة من طلبة كلية الشريعة بأيت ملول يسألونه أحيانا عن انتمائه الديني ونقصد هنا الطريقة الصوفية، لأنهم على دراية بأنه سينغالي وأنه مسلم بحكم احتكاكهم المتكرر بالطلبة السينغاليين، وبأن الكلية لا يلجها من هم دون ذلك. كما أفاد أن هناك علاقة مهمة بين الانتماء الديني للمهاجر وبين مدى سهولة اندماجه الاجتماعي من صعوبتها، لأن المغاربة كما أخبرونا بالسينغال وقبل القدوم على أنه في المغرب يهتمون بالعبادات والصلوات. وهو نفس الأمر الذي وجدناه ولاحظناه خلال مدة استقرارنا بالمغرب، ولو بدرجات مختلفة. وبالتالي فأغلبية المغاربة يتقبلون المهاجرين من جنوب الصحراء ذوو انتماء ديني مسلم ويرحبون بهم مقارنة بمن هم دون ذلك. وعند طالب سلك الماستر ومقدم الزاوية المريدية

"مصطفى"(مصطفى، مقابلة شخصية رقم 10، أيت ملول/ مقر الزاوية المريدية،2022/05/31)؛ والذي أشار إلى أنه في كثير من الأحيان سئل من طرف المغاربة خصوصا زملاء العمل بمركز الاتصال هل أنت مسلم، ونفس السؤال يطرح على غالبية مريدي الزاوية خصوصا من طرف زبنائهم أو زملاء عملهم.

وانطلاقا من هذا؛ يمكن القول إن هناك علاقة بين الدين وعملية اندماج مهاجري جنوب الصحراء بالمغرب، بحيث أن مهاجري جنوب الصحراء السينغاليين يجدون سهولة كبرى في عملية الاندماج هنا بالمغرب، وقبولا منقطع النظير من طرف المغاربة. وهذه الميزة والخصوصية راجعة إلى كون العلاقات المغربية السينغالية جد قديمة، بحكم وجود روابط دينية وطيدة. إلا أن هذا يمكن أن يكون محل إقصاء ورفض للمعني بالأمر خصوصا إذا كان يملك هوية دينية مغايرة لمجتمع الاستقبال، مما يجعل الفرد بين إمكانيتين؛ إما أن يدعي هوية دينية جديدة ويتعايش معها بدءا من تغيير الاسم والجنسية، وإما يعاني الإقصاء والتهميش في مجتمع يرحب بالشبيه وينبذ المختلف سيما من ناحية الدين والاعتقاد.

ب-الزوايا وتيسير عملية اندماج المهاجر

جدير بالبيان في البدء، أن "التجارب الدينية" في السرديات الهجروية لم تحظ بفائق العناية، باعتبارها "تجارب فردية أو جماعية" تشكل مدخلا قرائيا مهما لفهم ديناميات الهجرة، ذلك أن التجارب الدينية، وفي نماذجها الصغرى والأكثر فردية، تشكل أساس القضايا الكبرى ومحور "لعبها" و"رهانها" في "السوق

الرمزية لأنماط التدين"(العطري، 2022، ص203). وتعتبر الزوايا بمثابة روافد وقنوات، تمارس من خلاها المؤسسة الدينية دورها في المجتمع. هذه الزوايا تضطلع بدور مهم في المغرب منظورا إليه كبلد استقرار مؤقت بالنسبة لمهاجري جنوب الصحراء قبل إكمال الرحلة نحو أوربا عندما تسمح الفرصة بذلك، أو كبلد استقبال ومقصد، خصوصا بالنسبة للسينغاليين منهم. فالزوايا سواء كانت رسمية خاضعة لوزارة الشؤون الإسلامية المغربية[11] أو غير رسمية، إذ تشمل الزوايا السرية في البيوت التي يكتريها المهاجرون أو ما يمكن أن نسميها "زوايا الشقق" ويخصصونها للعبادة الجماعية، تقوم بوظائف عديدة من أجل مساعدة المهاجرين وتسهيل سيرورة اندماجهم الاجتماعي بالمجتمع المغربي، هذه الأدوار تتنوع بين ما هو روحي معنوي، وما هو مرتبط بالجانب المادي والاقتصادي .

إن ما تفضلنا به ينهله أساسه من الملاحظة المباشرة والمقابلات الميدانية؛ لقد صرحت "خديجتو" (خديجتو، مقابلة شخصية رقم 2)، في سياق سؤالها عن الأمكنة التي تمارس فيها طقوسها الدينية، أفادت أنها تصلي في

[11] أكد العديد من مسؤولي الزوايا التيجانية الرسمية ممن استجوبناهم (3 نظار من أصل 4)، أن فئة مهاجري جنوب الصحراء تتوافد أحيانا بشكل فردي أو ثنائي لحضور الأذكار والأوراد، خصوصا حضور الوظيفة "الهيللة" يوم كل جمعة بعد العصر. كما تشهد حضورهم في شهر رمضان من أجل صلاة العشاء والتراويح، وتناول وجبة العشاء تقريبا كل يوم. وأثناء إحياء ذكرى المولد النبوي كل سنة قبل الذكرى بأسبوع، حيث يتوافد عليها حوالي 300 مريد "فقير" على أقل تقدير بمن فيهم الفئة التي هي قيد الدراسة. هذا وإضافة إلى المهاجرين من جنوب الصحراء الذين يعتبرون عابري سبيل نحو مدينة فاس سواء من أجل زيارة قبر الشيخ أحمد التيجاني أو من أجل التجارة أو هما معا، والذين يستفيدون من بعض الوجبات من الطعام إثر وجود المطبخ والمؤونة بالزاوية، فضلا عن تقديم دعم مادي لمن يحتاج ذلك منهم.

مركن السيارات قرب المكان الذي تعرض فيها سلعها للبيع جانب سوق "الثلاثاء" بإنزكان، وفي المنزل عندما تنتهي من العمل، وتذهب كل يوم أحد بصحبة زملائها إلى الزاوية المريدية بحي "الشهداء" بأيت ملول بشكل مستمر، من أجل ممارسة الطقوس الدينية بشكل جماعي. وهو مكان يشكل مناسبة لقاء باقي الزملاء والزميلات من السينغال، وتبادل الأفكار والنصائح والتوجيهات وإيجاد حلول للمشاكل التي تواجه جل هؤلاء المهاجرين من طرف رئيس المجموعة "Chef de Community"، ومن طرف مقدم الزاوية.

كما توفر هذه الزاوية مجموعة من الخدمات والمساعدات من قبيل الأكل والمبيت بالنسبة للمهاجرين السينغاليين حديثي التواجد بالمغرب، وتساعدهم حتى يجدوا مكانا للاستقرار، كما هو الحال بالنسبة ل "محمد" (طالب سنة أولى شريعة) الذي تمكن من المبيت لأسابيع عديدة بمعية زملائه من الطلبة بالزاوية (المريدية الكائنة بحي الشهداء بأيت ملول) واستفاد من خدماتها العديدة، حتى تمكن من إيجاد بيت للاكتراء صحبة زملائه بغية الاستقرار. مؤكدا كذلك أنه داخل هذه الزاوية المريدية يتلقون تعليم اللغة العربية، وتقديم النصائح في كافة شؤون الحياة هنا بالمغرب كبلد مقصد، تعريفهم بالمنطقة وخصوصياتها، وتقدم مساعدات مادية من طرف مريدي هذه الزاوية بالنسبة إلى المهاجرين خصوصا الجدد منهم، توفر لهم الأمن الروحي من خلال ممارسة الطقوس الدينية التي تجعلهم وكأنهم في بلدهم الأصل. ويقول محمد في ذات الإطار (محمد، مقابلة شخصية رقم 9):"**نعم نعم تساعدنا جدا؛ تساعدنا في تعلم القراءة واللغة العربية الفصحى، والتحدث بالدارجة المغربية، وتقدم لنا خدمة المبيت نحن كوافدين جدد، بعض الوجبات من الطعام، المال أحيانا لمن له**

ظروف مادية حرجة، الاستفادة من نصائح مقدم الزاوية وكذا مريديها من الزملاء السينغاليين الذي يفوقوننا تجربة وعمرا....".

نفس الأمر ما دعمته "مريم"، (وهي مسلمة مريدية الطريقة) ، عند سؤالها عن المكان الذي تقيم فيه الصلوات والطقوس الدينية، عبرت على أنها تصلي الصلوات اليومية في الأيام التي تشتغل فيها في مكان لركن السيارات خلف محلات بائعي المشويات، وفي المنزل مساء. كما أشارت إلى أنها من وقت إلى آخر تذهب إلى الزاوية من أجل ممارسة ما يسمى ب "الوظيفة" كل يوم أحد بصحبة زملائها وزميلاتها من السنغال. وأكدت على الفضل الكبير لهذه الزاوية "المريدية" سواء بالنسبة لها شخصيا أو بالنسبة لباقي المهاجرين، خصوصا حديثي الوصول والاستقرار بالمدينة. إن الذهاب إلى هذا المكان يشكل مناسبة للقاء باقي الزملاء السينغاليين وغير السينغاليين، المنتمين لنفس الطريقة أو غيرها، ومساعدة بعضهم البعض من الناحية المادية والمعنوية (المبحوثة مريم، مقابلة شخصية رقم 3) .

إن أهمية المكان (الزاوية) وخصوصيته ورمزيته قد لامسناها أثناء استجواب "عبد الله"(عبد الله، مقابلة شخصية رقم 10، أيت ملول/ مقر الزاوية المريدية، 2022/05/31) . أثناء سؤاله عن الأمكنة التي يصلي فيها ويقيم فيها الطقوس الروحية، أجاب أنه يقوم بذلك في كل من المنزل والمسجد، وبالزاوية حيث هو متواجد في هذه اللحظة رفقة العديد من زملائه، حيث قمنا باستجوابه بعد الانتهاء من قراءة القرآن بشكل فردي، ثم تلاوة الأذكار بشكل جماعي وبصوت مرتفع، بلغة عربية فصحى -يطغى عليها جو من

الروحانية- التي هي عبارة عن أمداح لرسول الإسلام محمد، مأخوذة من مؤلف ألفه شيخ الطريقة المريدية أحمدو بامبا.

إن التواجد بهذه الزاوية يمكنه من تعلم العديد من الأمور الجديدة والمفيدة على حد تعبيره؛ بداية من كونه يشكل فرصة لقاء باقي الزملاء السينغاليين، ثم تبادل التجارب والخبرات المعيشية ، المساعدة على إيجاد حل مشاكل البعض، تعلم اللغة العربية الفصحى بالنسبة لمن لا يجيد التحدث بها، عبر تلاوة مقدم الزاوية للأبيات المدحية ثم تكرار الباقي لما ردده هذا المقدم، تبادل النصائح بينهم، والاستفادة من نصائح وتوجيهات مقدم الزاوية نظرا لرمزيته الكبرى والتي يتجلى أهمها في طريقة التحية والصوت المنخفض أثناء الحديث معه وطأطأة الرأس أثناء كلامه والإنصات لنصائحه، إنه يمثل قدوة في السلوك والمعاملة الحسنة والطيبة معهم.

كما يشكل اللقاء بالزاوية فرصة للالتزام شكلا ومضمونا؛ إن التواجد بالزاوية يحدد ما يجوز وما لا يجوز بدءا من طبيعة اللباس الذي يجب أن يرتديه المريد داخل الزاوية؛ لقد وضحت الملاحظة بالمشاركة التي قمنا بها، أن كل المريدين داخل الزاوية يرتدون لباسا تقليديا نسميه في الثقافة المغربية "الكندورة أو الجلباب"، ويمنع في مقابل ذلك ارتداء سراويل "الدجين" أو السراويل القصيرة " شورت"، كما يجب أن يتجنب المريد ارتداء "الطربوش" أو شيئا يوضع فوق الرأس خصوصا أثناء ممارسة الطقوس الدينية. أما بعد الانتهاء ووصول وقت الأكل، فيستحب أن يضع المريد الذي يملك شعرا طويلا مظفرا "الراسطا" فوق رأسه عمامة، حتى لا تتساقط شعيرات رأسه فوق إيناء الأكل

خصوصا أن الأكل لا يتم فوق مائدة مخصصة لذلك، بل يقدم من خلال وضع الإناء بشكل مباشر فوق الأرض بعد بسط غشاء من البلاستيك (ما تضعه الأسر المغربية فوق موائد الطعام) يمنع تساقط فتات الطعام فوق زرابي الزاوية.

صورة رقم 2: تبين تواجدنا صحبة مجموعة من مريدي الزاوية المريدية بلباس يعكس خصوصية المكان، بعد الفراغ من تلاوة الأذكار والأوراد، وأمامنا كتاب الأذكار الذي ألفه شيخ الطريقة "أحمدو بامبا"

المصدر: البحث الميداني

كما أكد أن الحضور إلى الزاوية المريدية ليس حكرا على مريدي الطريقة فقط، بل متاح حتى لمن هم دون ذلك، خصوصا للزملاء ذوو الطريقة التيجانية، شريطة احترام رمزية المكان والطريقة. وفي إطار استفهامه بشكل صريح عن مدى مساعدة هذه الزاوية لمهاجري جنوب الصحراء في سيرورة الاندماج الاجتماعي داخل المجتمع المغربي، أجاب بالإيجاب مؤكدا مساعدتها بشكل كبير للمهاجرين، ويتجلى ذلك في مساعدتهم من خلال تقديم الأكل والمبيت خصوصا للمهاجرين الجدد حتى لو تعلق الأمر بذوي انتماء ديني

مختلف، وتساعدهم على مواجهة الصعوبات والمشاكل ومع الشرطة بشكل خاص أثناء حجزهم على سلع المهاجرين.

إن ما تقدم، لا يخرج عما أفادنا به الشاب "مصطفى" (مهاجر سينغالي، وطالب بـ "Universiapolis d’Agadir") أثناء استجوابه بالزاوية التي كنا متواجدون فيها في تلك اللحظة، حيث يمارس طقوسه بصفته مقدم الزاوية (المريدية) من أذكار وأوراد الطريقة وقراءة القرآن بصحبة العديد من الزملاء كل يوم أحد. حسب تجربته الخاصة، فهذه الزاوية تساعد مهاجري جنوب الصحراء على الاندماج هنا بالمغرب؛ فالعديد من المهاجرين خصوصا السينغاليين الجدد يجعلون من الزاوية وجهة، انطلاقا من معرفتهم بذلك أثناء تواصلهم المستمر مع زملائهم هنا بالمغرب الذين جعلوا من إنزكان محطة عبور نحو مدن الشمال أو أوربا، أو حتى أولئك الذين اختاروا أو اضطروا إلى الاستقرار هنا بالمدينة، طمعا في مساعدتهم على سرعة التكيف والتأقلم هنا (مصطفى، مقابلة شخصية رقم 10، أيت ملول حي الشهداء/ مقر الزاوية المريدية، 2022/05/31).

صورة رقم 3: رفقة مريدي الزاوية من المهاجرين، وعلى يسارنا الشاب "مصطفى" مقدم الطريقة المريدية بالزاوية، وخلفنا صورة مؤسس الطريقة الشيخ "أحمدو بامبا"

المصدر: البحث الميداني

إن المهاجرون الدوليون يحتاجون بشكل كبير إلى الرابط التضامني الاجتماعي في مواجهة التحديات التي تعترضهم في بلدان الاستقبال، مثل الفقر والبطالة وعدم الحصول على الخدمات الاجتماعية، وصعوبات الاندماج والتفاعل مع المجتمع المضيف (قجي، 2024، ص88) . لقد صرح "مصطفى" في نفس السياق، بصفته مقدم الزاوية أن هذه الأخيرة تقدم للمهاجرين العديد من المساعدات باختلافها؛ فهي تفتح أبوابها لهم من أجل المبيت والاستقرار، تقدم لهم الطعام كذلك إثر المساهمات التي يوفرها مريدي الزاوية. الأمر الذي ما قامت به كذلك أثناء فترة الحجر الصحي إثر فيروس كورونا، تعليم اللغات

المحلية المغربية، بل الأكثر من ذلك تساعدهم ماديا إذا استدعى الأمر ذلك، فضلا عن تقديم الإرشادات والنصح سواء فيما يتعلق بالتعاليم الدينية المتعلقة بالطريقة أو تلك التي ترتبط بأمكنة المدينة وخصوصياتها أو بكيفية التعامل مع الآخرين، ثم تساعدهم على مستوى إيجاد عمل من أجل إيجاد مصدر للدخل والمعيش اليومي، سواء من خلال تقديم توجيهات ونصائح لإنجاح عملية التجارة أو من خلال تعبئة الرأسمال الاجتماعي لإيجاد عمل بإحدى الضيعات الفلاحية أو شيء من هذا القبيل. فضلا عن تنظيم العديد من اللقاءات المنظمة، ونفس الأمر تقوم به الزوايا المريدية بباقي المدن المغربية حسب تأكيده.

وفي خضم هذا الأمر، أشار المبحوث "مصطفى" بصفته مقدم الزاوية، أنه استطاع تغيير أفكار العديد من المهاجرين الذي يتوافدون على الزاوية، والذين كانت لهم رغبة جامحة في الهجرة نحو أوربا بمن فيهم أولئك الذين يهاجرون بطريقة غير شرعية، وذلك من خلال تقاسم الاستشهاد بالعديد من تجارب المهاجرين الذين سبقوهم، وإقناعهم أن الأرزاق بيد الله فليس هناك داع للمغامرة ووضع حد للوجود عبر ركوب "قوارب الموت"، ولعل عمليات الإقناع هاته دائما تكون ذات صبغة دينية روحية عبر مخاطبة الجانب الوجداني-الروحي للمهاجرين.

وما تم ذكره بخصوص الزاوية المريدية، نفسه ما توصلنا إليه حول الزوايا التيجانية؛ ولعل "مصطفى" (مصطفى، مقابلة شخصية رقم 11، مدينة إنزكان/أمام سوق الثلاثاء، 2022/05/19) . بصفته مقدم الزاوية التيجانية

(سينغالي صاحب 42 سنة) ، أكد أن الجانب الروحي مهم جدا بالنسبة للمهاجر في بلد المهجر؛ لذلك صرح أنه يصلي بالمسجد خصوصا صلاة الجمعة وقيام الليل في شهر رمضان. أما عندما يتعلق الأمر بتلاوة الأذكار وأوراد الطريقة التيجانية، فيذهب كل يوم سبت بصبحة زملائه إلى منزل صديق لهم بحي السلام بأكادير، يجتمعون ويحولون منزله إلى زاوية لممارسة طقوسهم الدينية. فهم حسب تعبيره يفتتحون الجلسة بقراءة القرآن، هذه الجلسة التي عبر عنها " بالوظيفة ". كما يجب أن نعلم أن قراءة القرآن لا تقتصر فقط على التواجد بالزاوية أو ترتبط بيوم كل سبت، بل تتعدى ذلك إلى طيلة أيام الأسبوع، بشكل فردي في الحياة الخاصة سواء أثناء الوجود بالمنزل أو حتى أثناء العمل وممارسة التجارة.

إن ما تفضل به المبحوث، ظهر لنا جليا أثناء استجوابه أمام سوق الثلاثاء بإنزكان إذ تبين من خلال المعاينة المباشرة أنه يحمل مصحفا، من جزأين مصغرين ويضعهما أمامه، من أجل قراءته عند كل لحظة فراغ. وحسب تجربته الخاصة، فالدين له أهمية كبرى في علاقته بالاندماج الاجتماعي للمهاجرين، لعل أهمها وأبرزها هو تقديم الأمن والاطمئنان الروحي والاستقرار النفسي والمعنوي للمهاجر، كما أن الاجتماع بالزاوية كذلك، يشكل مناسبة لتشارك التجارب والهموم وتقاسمها، بغية مساعدة بعضهم البعض إن تطلب الأمر ذلك.

وصرح في جوابه عما إذا كانت تساعد دور العبادة في عملية اندماج مهاجري جنوب الصحراء بالمغرب، أنه بطبيعة الحال فإن الانتماء الديني يفرض

التعاون مع من ينتمون إلى نفس الدين، لأن الإسلام كدين يوصي بذلك، بل الأكثر من ذلك فهو يحث على التعامل مع الآخرين كإنسان، ومساعدتهم، لذلك نحن نساعد بعضنا البعض : **" الصلاة عبادة مفروضة علينا فيما مشينا سواء هنا سواء في فرنسا أو السينغال، والمسلم أخو المسلم، لذلك لابد تكون واحد العلاقة إنسانية مزيانة...مثلا كتلاقا مع واحد مسكين كيبقى فيك الحال كيدير شي حاجة كتقول هذا عابر سبيل كتساعدو، وكتقدم ليه معاونة ".**

إن التجربة الدينية على العموم، وكما يقول وليام جيمس، ليست ثابتة وقارة، ولا تحيل حصرا على تجربة واحدة مخصوصة، ولا عن بناء مجرد، إنها وفي جميع الأحوال تعد متحركة ومتنوعة ومفتوحة على كثير من الصيغ والاستعمالات (W. James, 2019, p87). فتحول المنازل إلى زوايا سرية من وقت لآخر وجدنا له امتداد عند المبحوثة "منينة" (المبحوث منينة، مقابلة شخصية رقم 4)صاحبة الفندق غير المصنف، أثناء سؤالها بخصوص المكان الذي تقيم فيه صلواتها وطقوسها الدينية، فهي في بداياتها كانت تصلي بالمسجد، لكن مع مرور الوقت أضحت تكتفي بالمنزل، وتذهب مرة في كل سنة إلى مدينة فاس من أجل زيارة الزاوية التيجانية المركزية حيث قبر الشيخ مولاي أحمد التيجاني. وأفادت أنها تمارس طقوس الطريقة من أذكار وأوراد بشكل يومي وبشكل فردي، وأشارت أن هذا المنزل "الفندق غير المصنف الذي تمتلكه" يتحول مرة في الأسبوع وتقصد مساء كل يوم أربعاء إلى مكان للعبادة بالنسبة للمهاجرين، خصوصا من ذوي الانتماء الديني الإسلامي باختلاف طريقتهم، سواء التيجانية أو المريدية؛ حيث يقوم المهاجرون من جنوب الصحراء بممارسة الطقوس الدينية لطريقتهم الصوفية بشكل جماعي، ويتلون الأذكار والأوراد. مما

يشكل مناسبة للقاء بعضهم البعض وتبادل تجاربهم المتنوعة، والإنصات لمشاكلهم، مؤكدة أنها تحاول في كل مرة هي شخصيا وصحبة رئيس المجموعة إيجاد حلول لهاته المشاكل خصوصا فيما يتعلق بالبحث عن العمل أو المشاكل مع البلدية التي تصادر سلع التجار منهم.

كما يوجد منهم من يقبل على الزوايا بمدينة إنزكان من أجل حضور الأذكار وقت فراغه، خصوصا الزاوية التيجانية المحادية للمسجد الكبير بحي "أسايس". هذا نفسه ما وجدنا له تزكية من طرف ناظر الزاوية "عمر مستغفر"(عمر مستغفر، مقابلة شخصية رقم 11، مدينة إنزكان/مقر الزاوية التيجانية بأسايس،2022/05/18) الذي صرح أن الزاوية تعرف أحيانا حضور بعض المهاجرين من جنوب الصحراء للأذكار خصوصا أوراد يوم الجمعة بعد العصر، وبعض المناسبات كذكرى المولد النبوي، وإحياء ليلة القدر في رمضان مع الفقراء "مريدي الزاوية". كما قد سبق لمهاجري جنوب الصحراء أكثر من مرة الاستفادة من خدمات من قبيل المبيت والأكل ومساعدات مادية بالنسبة لمن هم في حاجة إلى ذلك، فضلا عن الاستفادة من وجبة العشاء وتقديم بعض الوجبات أحيانا في الأيام العادية إن استدعى الأمر ذلك.

إلا أن خدمة المبيت لهذه الفئة وغيرها أصبحت مشروطة مؤخرا باعتبارات عدة بعد فترة الحجر الصحي. هذا ما أفادنا به كذلك المبحوث " الحسين" (ناظر الزاوية التيجانية الكائن بحي الجرف) ، والذي عبر عن أن الزاوية تقدم هذه الخدمة لكن شريطة معرفة المعني بالأمر، وإخبار السلطة بذلك، ورفض من هم دون ذلك، وذلك عائد إلى اعتبارات عديدة لعل أهمها

هو تشديد التعليمات من طرف السلطة. يصرح قائلا: " **كنا سابقا كنسمحو بالمبيت لأي كان دون شروط، لكن دبا تبدلات الوقت وتزيرات، دبا الإنسان لي معروف هو لي كتقدم ليه هاد الخدمة، تجنبا للمشاكل، وحتى الانسان لي معروف كتخبر بيه السلطة...** " (الحسين، مقابلة شخصية رقم 12، مدينة إنزكان/المسجد الكبير بحي الجرف،2022/05/14).

الخلاصة:

يتضح من خلال هذه الدراسة، أن الكثير من مهاجري جنوب الصحراء جعلوا من المغرب بلد مقصد واستقرار، نظرا لعدة اعتبارات، تتنوع بين كون المغرب يشكل فرصة لممارسة التجارة وتحسين الوضعية المادية لهاته الفئة، وجود شبكات اجتماعية، تتجلى في معارف المقبل على قرار الهجرة، في بلد المهجر مما يتيح لهم أخبار ومعطيات عن البلد. هذا يشكل تحفيزا لقرار الهجرة نحو المغرب. كون المغرب وجهة مفضلة للطلبة السينغاليين من أجل إتمام الدراسات الجامعية والعليا والتتويج بدبلومات وشواهد تخول لهم الانخراط في سوق الشغل وفي وظائف مهمة، فضلا عن كونه بلدا شقيقا للسينغال إذ لا يشعر هؤلاء المهاجرين بالغربة بتاتا مما يسهل سيرورة اندماجهم داخل أطياف المجتمع المغربي. فيكفي أن يفصح المهاجر أنه من السينغال إلا ويلقى ترحيبا وقبولا من طرف المواطنين المغاربة صغارا وكبارا، وهذا يمتح أصوله من العلاقة الروحية والدينية التي تربط السينغال بالمغرب إثر وجود ضريح شيخ الطريقة التيجانية أحمد التيجاني بمدينة فاس، لأن جل السينغاليين مسلم تيجاني

الطريقة. هذا كله فرض ضرورة التساؤل عن أهمية الدين في تيسير سيرورة الاندماج الاجتماعي لمهاجري جنوب الصحراء بالمغرب.

لقد توصلنا من خلال الدراسة الميدانية إلى أن هناك علاقة وطيدة بين الدين؛ متمثلا في الانتماء الديني للمهاجر، وفي الزوايا كقنوات لممارسة الدين لوظيفته، أهمية كبرى في سيرورة الاندماج الاجتماعي لمهاجري جنوب الصحراء خصوصا السينغاليين منهم بالمغرب. فالمهاجر ذو انتماء ديني مسلم يلقى قبولا وترحيبا من طرف المغاربة سواء بشكل أو آخر، مما يجعلهم يبدون ارتياحا لهم قولا ومعاملة، مقارنة بالذين لهم انتماء ديني مسيحي أو غير ذلك. ولعل هذا ما يفسر مدى القبول الكبير والمنقطع النظير للمهاجرين السينغاليين من طرف المغاربة.

كما أنّ الزوايا خصوصا التيجانية والمريدية تساعدان بشكل كبير على عملية الاندماج والاستقرار من خلال تقديم خدمات عدة، ولعل أبرزها تحقيق الأمن الروحي للمهاجر، تأمين المبيت ولو بشكل مؤقت للمهاجرين خصوصا حديثي الوصول منهم إلى المغرب، تقديم وجبات الطعام، تعبئة الموارد لإيجاد عمل من أجل ضمان مدخول يومي، توفير جو للتفاعلات ومناسبة لتبادل الأفكار والنصائح مع من يفوقونهم في التجربة الهجروية.

المصادر والمراجع:

1-العربية

- لشهب، سفيان، الهجرة من أفريقيا جنوب الصحراء إلى المغرب: السياق والدوافع، المجلة المغربية للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 10، أبريل-يونيو2020.
- بن بيه، رشيد، الأجانب في المغرب: دراسة ببليوغرافية وتحليلية لسياقات التوافد، مجلة إضافات، العددان 33- 34 شتاء – ربيع 2016.
- الدريسي، ادريس، الهجرة والقيم في مسار الدينامية الاجتماعية لمهاجري أفريقيا جنوب الصحراء بالمغرب جهة سوس ماسة نموذجا، ضمن كتاب جماعي، الهجرة والتحولات القيمية قضايا ومقاربات، 2024.
- بن بيه، رشيد، الهجرات النسائية الجديدة في أفريقيا: المحددات والديناميات، ط 1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2021.
- معجم المعاني الجامع، "تعريف ومعنى الهجرة"، www.almaany.com، اطلع عليه بتاريخ 2018-12-19.
- قجي، سعيدة، الرابط الاجتماعي التضامني بين مهاجري بلدان جنوب الصحراء دراسة ميدانية بسوق المدينة القديمة بالدار البيضاء، ضمن كتاب جماعي، الهجرة والتحولات القيمية قضايا ومقاربات، 2024.
- بلعباس، عبد الله، ظاهرة الهجرة عند عبد المالك صياد: من السياق التاريخي إلى النموذج السوسيولوجي، مجلة إنسانيات، عدد 62 أكتوبر-دسمبر 2013.
- البكوري عبدالحق ومحسن كمالة، الهجرة وسؤال التعددية الثقافية والهوية الدينية بجهة الشرق، المهاجرون الأفارقة والسوريين أنموذجا، ضمن كتاب جماعي، الهجرة والعلوم الاجتماعية الديناميات الهجروية وتحديات التعددية الثقافية، 2022.
- بن عشمان، عزالدين، الدين في العلوم الاجتماعية: الدين ودوره في الثقافة، الحوار المتمدن، العدد 2399، 2008، من: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=146508
- الابراهيمي، زكريا، حول الدين في العلوم الاجتماعية، مؤمنون بلا حدود، مؤسسة دراسات وأبحاث، قسم الدراسات الدينية، 2013.
- أبو الفضل جمال الدين، ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1999.

▪ مالكي، امحمد، الاندماج الاجتماعي وبناء مجتمع المواطنة في المغرب الكبير، في جدليات الاندماج الاجتماعي وبناء الدولة والأمة في الوطن العربي، مجموعة مؤلفين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2014.

▪ بوخريص، فوزي، الاندماج الاجتماعي والديمقراطية: نحو مقاربة سوسيولوجية، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط.

▪ المالكي، عبد الرحمان، الثقافة والمجال دراسة في سوسيولوجيا التحضر والهجرة في المغرب، منشورات مختبر سوسيولوجيا التنمية الاجتماعية -جامعة سيدي محمد بن عبد الله- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- ظهر المهراز، فاس، 2015.

▪ المالكي، عبد الرحمان، مدرسة شيكاغو ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة، افريقيا الشرق، الدار البيضاء،2015.

▪ بوخريص، فوزي، مدرسة شيكاغو ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة، مؤمنون بلا حدود، يناير 2019.

2-الأجنبية

▪ N. Harrami, "Un bilan DE la recherche en sciences sociales sur les migrations trannationales au Maroc", in Actes du colloque international: les Evolutions DE la recherche sur les migrations. internationales au Maroc, 2011.

▪ Cusson,M, "déviance", 1992- dans Alexandre Morin- intégration sociale et problèmes sociaux chez les Inuits du Nunavut, Université Laval, Québec, 2008.

▪ Dominique Scnapper, la communauté des citoyens, paris, ed Gallimard, 2003.

▪ Andrea rea, maryse tripier, sociologie de l'immigration, référence précédente, (n.d.) .

▪ Abdelmalek Sayad, « la double absence », Des illusions aux souffrances de l'immigré. Préface de Pierre Bourdieu. Paris, seuil, 1999.

▪ William James, Les formes multiples de l'expérience religieuse, 2019.

الفصل الرابع

مظاهر إشعاع الزوايا الكنتية بالمغرب خلال القرنين 18م و19م وأدوارها

The Influence of the Kentiya Zawiyas in Morocco During the 18th and 19th Centuries and Their Role

بويزكارن هشام
باحث في التاريخ الحديث
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس (المغرب)

الملخص:

يدور موضوع هذا المقال حول "**مظاهر إشعاع الزوايا الكنتية بالمغرب خلال القرنين 18 و19م وأدوارها**"، وذلك بتسليط الضوء على ظروف تأسيس هذه الزاوية وارتباطها بالمغرب منذ البدايات الأولى إلى غاية الفترة المدروسة، كما بينا مسارات انتقال إشعاع الزاوية إلى البلاد ودورها في توسيع نفوذها، وكذلك بعض مظاهر إشعاعها به. وكل هذا سعينا من خلاله إلى إبراز أهمية الزوايا في ترسيخ العلاقات بين المغرب وافريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث، وكذلك المساهمة في تجديدها عبر الدور التعليمي والروحي لهذه الأخيرة، والذي كان له فضل في تكوين مجموعة من العلماء تركوا إرثا علميا مهما في شمال افريقيا وغربها، مازال يحتاج إلى كشف اللثام عنه بالدراسة والتحقيق سواء داخل المغرب أو في باقي أقطار افريقيا من موريتانيا والنيجر

والسينغال وغيرها، وذلك لتعزيز هذه العلاقات وتطويرها في سبيل ما يحقق المنفعة للجميع، وخاصة التراث العلمي للكنتيين.

الكلمات المفتاحية: الزوايا الكنتية- الأدوار- الفكر الصوفي- المغرب- إشعاع الزاوية.

ABSTRACT:

The topic of this article is about "the manifestations of the radiation of the Kunta zāwiyas in Morocco during the 18th and 19th centuries and their roles", by highlighting the circumstances of the establishment of this corner and its connection with Morocco from the first beginnings until the period studied, we also showed the transmission paths of corner radiation to the country and its role in expanding its influence, as well as some manifestations of its radiation. Through all this, we sought to highlight the importance of Zawiya in consolidating relations between Morocco and sub-Saharan Africa during the modern era, as well as contributing to its renewal through the educational and spiritual role of the latter, which was credited with forming a group of scientists who left an important scientific legacy in North and West Africa, which still needs to be revealed by study and investigation, whether inside Morocco or in the rest of Africa from Mauritania, Niger, Senegal and others, in order to strengthen and develop these relations in order to benefit everyone, especially the scientific heritage of the Kentish.

Keywords: *Kunta zāwiyas, Roles, Sufi Thought, Morocco, Zawiya Influence.*

المقدمة:

شكل المغرب منذ العصر الوسيط مجالا خصبا لانتشار الفكر الصوفي والزوايا، نظرا لتوفر مجموعة من الشروط التي ساهمت في هذا؛ من موقع المغرب وإقبال السكان عليه من جميع فئاته المختلفة، بالإضافة إلى مساعدة بعض السلاطين على تأسيس مجموعة منها، وتوسعت هذه الزوايا حتى شملت جميع المناطق في الحقبة الحديثة.

وقد كان من أهم الزوايا التي كتب لها أن تتواجد لها فروع في المغرب الزاوية المختارية الكنتية خاصة خلال القرنين 18 و19، وذلك بعد تأسيس مجموعة من مريدي هذه الزاوية وشيوخها فروعا لها بعدة مدن في المغرب، مستغلين ظروف البلاد وإقبال المغاربة عليها، وعلى علمائها الذين لعبوا أدوارا مهمة خاصة في مرحلة الضغط الأجنبي التي تعتبر فترة حساسة في تاريخه بالنظر إلى ما أسفرت عنه في القرن 19م.

استطاعت هذه الزوايا أن تكون أجيالا مهمة من العلماء في المغرب وأن تقوم بأدوار مهمة في مناطق تواجدها؛ إذ كانت قبلة للمتعطشين للعلم والمعرفة والتربية الروحية الصوفية من الكبار والصغار، وكانت ملجأ لعابري السبيل والباحثين عن الطمأنينة والسكينة في رحابها، بالإضافة إلى مساعدة الفقراء والمحتاجين سواء بإيوائهم أو إطعامهم.

ساعد على انتشار هذه الزوايا أخذها بالطريقة القادرية التي برزت في المغرب منذ القرن 16م واستمرت فيما بعد مع توسع مريديها، وكذلك ظروف البلاد على المستوى الداخلي والخارجي والتي لعبت فيها الزوايا دورا مهما في

تجاوز مجموعة من المحن التي كانت تمر منها البلاد أمام الضغط الأجنبي على المغرب والذي كان يمهد لاحتلاله، بالإضافة إلى اضطراب الأوضاع الداخلية بين القبائل في بعض الأحيان، والتي كانت هذه الزوايا تقوم بفك الصراعات بينها وإصلاح ذات بينها عبر وساطة شيوخها. كما أن السلاطين العلويين أقاموا علاقات مهمة مع الزوايا الكنتية ساعدتها على أن تقوم بأدوارها بشكل مهم في هذه الظرفية الحرجة.

إن هذه الورقة تحاول تسليط الضوء على مظاهر إشعاع الزاوية الكنتية المختارية بالمغرب من خلال الإجابة على الإشكاليات التالية:

_ ما الظروف التي ساهمت في انتشار الزوايا الكنتية بالمغرب؟

_ ما أهم الزوايا المختارية الكنتية التي تواجدت بالمغرب خلال القرن 19؟

_ ما أبرز مساهمات وأدوار الزوايا الكنتية بالمغرب؟

_ إلى أي حد نجحت الزوايا الكنتية في منافسة باقي الزوايا بالمغرب؟

أولا _ تأسيس الزاوية الكنتية وأهم أدوارها:

1_ ظروف تأسيس الزاوية:

تأسست الزاوية الكنتية الأولى على يد أحمد البكاي الذي توفي في حدود سنة 920ه/ 1514م (النحوي، 1987، ص. 517)، وهو الذي وضع الأسس الأولى لبنائها قبل أن تتوسع وتشمل عدة مناطق، وحسب ما وصل إلينا فإنه تم تأسيسها خلال القرن 16م بولاتة التي استقر فيها الشيخ بطلب من سكانها

خلال إحدى سفرياته، وتوسعت فيما بعد على يد أحفاده في غرب افريقيا وباقي المناطق الصحراوية حتى حدود السنغال، وينتمي البكاي وأسرته إلى عقبة بن نافع الذي دخل إلى المغرب أثناء الفتوحات الإسلامية، ويعرف هذا الشيخ أيضا ببودمعة، وقد ركز خلال حياته على الدعوة إلى الإسلام خاصة داخل الزنوج (بوفلجة، 2019، ص. 94).

وبالنسبة لاسم الزاوية الكنتية ولقب شيوخها بالكنتيين فهو يأتي من انتساب جد هؤلاء إلى قبيلة كنتة والتي تصاهر معها؛ حيث تزوج من أهوا بنت محمد العالم (ولد السالم، 2010، ص. 341)، والانتساب هنا من جهة الأم، وذلك لأن محمد الكنتي تربى عند أخواله الكنتيين وعندهم أكمل تعليمه الديني وتلقى تعاليم التصوف (1)، وتعتبر كنتة من القبائل المهمة بجنوب الصحراء التي توسعت بفضل النفوذ الروحي للزاوية وشيوخها حتى أصبحت خلال القرن 16م من الاتحاديات الكبرى في المنطقة، وقد ساعدت قوتها ومجال نفودها الذي كان يمتد في بدايتها من تيرس حتى الساقية الحمراء في إشعاع نفوذ الزاوية (ناعمي، 1989، ص. 6820).

بدأ توسع الزاوية الكنتية بشكل بارز بعد استقرار الشيخ سيدي عمر بن الشيخ سيدي أحمد البكاي بتوات (توفي سنة 960ه/ 1552م)، وذلك لأنه هو الذي وضع أسس الطريقة الصوفية للزاوية، بعدما استقر في المنطقة، وأخذه من مجموعة من الشيوخ في المشرق والمغرب والذين منهم السيوطي والشيخ المغربي المشهور محمد بن عبد الكريم المغيلي (بن إبراهيم، 1993، ج.5، ص. 106)، الذي صاحبه مدة من الزمن في أسفاره بعد التقائه، ومنه أخذ الورد القادري

والطريقة القادرية (2) وأمره بنشرهما في مجال استقراره (الشيخي، 2009، ص. 177).

ورغم أن هذه الزاوية عرفت تراجع في نهاية القرن 16 وبداية 17م، فإنها عادت في القرون التالية إلى الواجهة في منطقة افريقيا جنوب الصحراء بفضل جهود مجموعة من شيوخ الزاوية الكنتية الذين أعادوا لها إشعاعها وأدوارهم حتى أنه أصبحت تعرف بهم بشكل جلي خاصة في القرن 18م وبداية 19م، كما أنه توسع مجال امتدادها في مجالات جديدة؛ منهم محمد المختار الكنتي الكبير بن أبي بكر بن الوافي (3) الولي المشهور الذي أورد بن إبراهيم ترجمة لحياته تحدث فيها عن اهتمامه بالعلم وبعض من كراماته المتعددة وأشار إلى أن ضريحه موجود بتوات ومشهور فيها (بن إبراهيم، ج. 7. 229)، حتى أنه أصبحت طريقة الزاوية تسمى باسمه؛ حيث تتحدث المصادر عن الطريقة المختارية.

وقد كان لتوسع الكنتية في الأزواد على يد الشيخ المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي (ت 1226ه/ 1811م) والمختار الكنتي المعروف بمحمد الخليفة (ت 1241ه/ 1826م) دور مهم في انتشار الطريقة البكائية المختارية المتفرعة عن القادرية (الحمدي، 2007، ص. 219)، فهذان الشيخان كان لهما إسهام كبير في المنطقة بفضل مهامهما التي كانا يقومان بها واتصالاتهم الواسعة مع بعض الأسر الحاكمة في افريقيا مثل الشيخ عثمان بن فودي الذي كان له فضل في نشر القادرية في افريقيا جنوب الصحراء (حوتيه، 2007، ص. 223) بعد اتصاله بالشيخ المختار بن أحمد والذي كان معروفا باهتمامه بالتأليف؛ حيث

تذكر المصادر أن مؤلفاته تصل إلى أكثر من ثلاثمئة مؤلف (314) شملت عدة علوم من الفقه والتفسير والآداب واللغة والسياسة وغيرها مثل الجرعة الصافية والنصيحة الكافية وتفسير الفاتحة والمنة في اعتقاد أهل السنة ... (الظريف، 1989، ص. 6823). وقد سار في نهجه محمد الخليفة الذي له أيضا مؤلفات منها جنة المريد والطرائف التالدة من كرامات الشيخ الوالد والوالدة (الظريف، 1989، ص. 6822). وأغلب هذه المؤلفات مازال مخطوطا ينتظر التحقيق وكشف الغبار عنه.

ساعدت عدة عوامل في قيام هذه الزاوية وامتدادها بين توات شمالا وتنبوكتو جنوبا والسودان الأوسط شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، أهمها تركيزها على نشر الدين الإسلامي القائم على اتباع السنة والقرآن الكريم، واهتمامها بنشر التعليم والتربية من خلال إنشاء مجموعة من المدارس في هذه المناطق، فتحت أبوابها لمجموعة من الطلبة والتلاميذ كانوا سفراء لها وساهموا في توسعها، إلى جانب كذلك استفادتها من الأوضاع الاجتماعية التي كانت تعرفها المنطقة والمتسمة بالصراع بين القبائل؛ حيث ركز شيوخ الزاوية على فض النزاعات بينها، ثم أيضا الحظ على الجهاد ضد الأجانب مع تزايد التدخل الأجنبي في المنطقة ومحاولاته احتلال عدة مناطق في افريقيا خاصة الاستعمار الفرنسي (محمد السعيد، 2016، ص. 39).

2_ بعض أدوار الزاوية الكنتية خلال القرنين 18 و19م:

قامت الزوايا الكنتية المنتشرة بتوات والأزواد وباقي مناطق افريقيا الغربية انطلاقا من إيمان شيوخها بعدة أدوار، لم تختلف كثيرا عن باقي أدوار

الزوايا في المغرب والمشرق، باستثناء التأثير بأوضاع المنطقة والتي حاولت هذه الزاوية مسايرتها بأشكال مختلفة من المهام المتنوعة، والتي شملت مجالات وميادين مختلفة من الديني والاجتماعي والتربوي والتعليمي وحتى الاقتصادي في بعض الأحيان:

_ الأدوار العلمية والتربوية:

إن تأسيس الزاوية الكنتية الأولى ومن بعد فروعها في المجال الذي كانت تمتد فيه، جاء بالأساس لمحاربة الجهل والقيام على تعليم السكان أمور دينهم ودنياهم، ويأتي هذا الدور في المقام الأول من إيمان شيوخها بأهمية التعليم والتدريس؛ حيث خصصوا حياتهم للتعلم والأخذ من الفقهاء في المشرق والمغرب، ومن بعد ذلك الجلوس للتدريس ونقل هذه المعارف إلى الطلبة والتلاميذ الذين كانوا يأتونهم من جميع الآفاق، واشتهار الزاوية بالتعليم جعلها تؤسس لنفسها نظاما تربويا بالمفهوم الحديث، والمختار بن عمر الكنتي «**كان يؤخذ عليه العلم كثيرا ، ويأتيه المتعلمون من الآفاق**» (ابن إبراهيم، ج. 7، ص: 230).

وشيوخ الكنتية الأولى خصصوا أموالا مهمة للتدريس والتعليم، حيث كانوا يتحملون نفقات الطلبة في تنقلاتهم من أجل اكتساب المعرفة سواء في افريقيا والاتجاه إلى المغرب أو المشرق (ولد أمينوه، 2013، ص. 7)، قبل العودة مرة أخرى إلى ديارهم، وهؤلاء كانوا مريدين للزاوية والذين ساهموا في إشعاعها في عدة مناطق من العالم الإسلامي ووصل صيتهم حتى مصر بفعل الاهتمام بالعلم (حوتيه، 2007، ص. 181).

كما كانت زواياهم تضم كتاتيب لحفظ القرآن وحلقات للذكر والتعلم يشرف عليها مجموعة من الفقهاء الذين كانت تكونهم الزاوية من مالها الخاص، وهذا كله جعل الزاوية تشتهر بالعلم والصلاح والمعرفة عند الجميع، وحتى شيوخها الكبار مثل سيدي المختار نهلوا من هذه البيئة واستمدوا منها توجههم العلمي والصوفي (السعيد، 2016، ص. 30).

_ الدور الديني:

ساهم الدور التعليمي التربوي الذي قامت عليه الزاوية الكنتية بفروعها وأوضاع المنطقة التي كانت مازالت تعاني من ضعف انتشار الإسلام بها رغم مرور قرون على دخوله إلى الصحراء في جعل هذه الزاوية بطريقتها القادرية منارة لإحياء علوم الدين ومنهل لبعث الروح الإسلامية خاصة في السودان الغربي وباقي مناطق الصحراء الكبرى الإفريقية، وبالتالي الحفاظ على الهوية الإسلامية لهذه المناطق و «**القائمة على الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السني المبني على إصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه**» (المهداوي، 2022، ص. 347).

ساعدت في هذا الإطار طبيعة الطريقة الصوفية إلى جانب شخصية الشيوخ الذين قادوها في هذا الجانب بشكل مهم؛ حيث أنها كانت قبلة لمجموعة من المريدين من عدة أماكن في افريقيا نظرا لإشعاعها وبدأوا بالأخذ بتعاليمها وبمبادئها التي كان لها دور مهم في توسيع دائرة انتشارها في افريقيا الغربية (حوتيه، 2007، ص. 221)، وبالتالي المساهمة في نشر الإسلام وفق مذهب السلف الصالح على منهاج السنة النبوية والقرآن الكريم، ولم يكتفي

بأخذ الطريقة من قبل السكان والتجار وإنما تبناها حتى الأمراء السياسيين في افريقيا جنوب الصحراء ودعموها؛ إذ كان شيوخ الكنتيين بنفوذهم الروحي يراسلون هؤلاء من أجل الدخول في الإسلام والاهتمام بالطريقة، ويكفي أن نذكر هنا الشيخ عثمان بن فوذي الذي كان له دور بارز في هذا الإطار (يعقوب، 2019، صص. 185، 186)، إلى جانب أمراء نيجيريا والسينغال وموريتانيا وغيرها من المناطق. والقادرية حسب شكراوي «**انتشرت في أرجاء السودان عن طريق الكنتيين الذين كان لهم اتصال مباشر بالطريقة على الأقل منذ القرن السادس عشر، وإن كانت مرجعيتهم الأساسية في هذا النطاق هي محمد بن عبد الكريم المغيلي**» (شكراوي، 2007، ص: 70).

وكان الكنتيون يعطون أهمية شديدة للتصدي لكثير من البدع والخرافات المنتشرة بأجزاء مهمة من البلاد وذلك بالتركيز على تعليم الناس أمور دينهم ونشر قواعده الصحيحة وفق منهج علمي يعتمد أساسا اللغة العربية والتي كان يتقنها علماء وفقهاء الزوايا الكنتية كتابة وقراءة، وهذا ما مكن من تجديد انتشار الدين الإسلامي في المنطقة مند دخوله، وقد كان «**للطريقة القادرية في نيجيريا مراكز للذكر والصلاة إلى جانب التعليم والتدريس والإفتاء والقضاء**» (حوتيه، 2007، ص. 224).

_ الأدوار الاجتماعية:

لم تتوقف أدوار الزوايا الكنتية عند التعليم والتربية الروحية ونشر الدين الإسلامي، وإنما عمل شيوخها على المشاركة في الحياة اليومية للسكان والاندماج فيها والمساهمة فيها، فقد مكنهم نفوذهم الروحي من القيام بأدوار اجتماعية

مهمة، تجلت في جعل هذه الزوايا المنتشرة على طول مجال امتداد قبائل كنتة وغيرها مركزا اجتماعيا يقدم خدمات مهمة للسكان من الإطعام ومساعدة الفقراء والمحتاجين وعابري السبيل، الذين كانوا في هذه المناطق الصحراوية يجعلون هذه الزوايا ملاذا لهم للاستقرار والتمتع بالأمن.

كما عمل شيوخ كنته على الاهتمام بالتكافل الاجتماعي ودعم قيم التضامن بين السكان التي كان يركز عليها الدين الإسلامي، وكذلك العمل على الصلح بين القبائل والأسر التي كانت تتنازع فيما بينها (محمد السعيد، 2016، ص. 38)، إلى جانب ردع الظلمة والذين يتخذون الظلم سلاحا لهم للجور على السكان والتعدي عليهم، الشيء الذي جعلهم قبلة للمتخاصمين والمظلومين وأعلى من شأنهم وسط السكان. وقد استطاع الشيخ المختار الكبير أن يجمع شمل كنتة الشرقيين بعدما كانوا يعيشون في وحدات منفصلة (نعيمي، 1989، ج. 20، ص. 8621).

وقد مكنت عملية المصاهرة التي قام بها شيوخ الكنتية من تعزيز العلاقات الاجتماعية في المنطقة وتوسيع نفوذهم الروحي، فهذا محمد الكنتي تصاهر مع تجكانت وولد منها أحمد البكاي الذي كان له دور مهم في نشر العلم وتكوين مجموعة من الأتباع الذين انتشروا في الغرب الافريقي وأصبحوا بمثابة رسل للزاوية، كما عمل عمر الشيخ (5) على تكوين تحالفات قوية مع بعض فروع القبائل مكنت من تأسيس اتحادية كنتة التي كانت تمتد من الأطلس الصغير إلى جنوب تمبوكتو مرورا بنهر السينغال ونهر النيجر والجنوب الجزائري (نعيمي، 1989، ج. 20، ص. 8621).

ولا بد أيضا في هذا الدور الاجتماعي أن نشير إلى دور أضرحة شيوخ الكنتية في تعزيز الروابط الاجتماعية، فهذه كانت كثيرة بين أزواد وتوات وظلت مزارا للسكان يتم زيارتها بين الحين والآخر سواء من الأفراد أو الجماعات، وكان بعضها يقدم خدمات للسكان فيما يخص التطبيب وتقديم بعض الوصفات للعلاج والتي اشتهرت بها بعض الأضرحة حسب معتقدات السكان، وهذه من العادات القديمة في شمال افريقيا والتي كان لها دور مهم في مساعدة الزوار على تجاوز بعض محنهم الصحية والمادية في بعض الأحيان، ومن أهم هذه الأضرحة ضريح أحمد بن محمد الرقاد بزاوية كنته، وضريح الشيخ المختار بن محمد بن عمر بلوافي بقرية الجديد وكذلك ضريح الشيخ محمد بونعامة بأقبلي (حوتيه، 2007، ص. 184).

_ الأدوار السياسية:

فرضت الظروف التي برزت فيها الزاوية الكنتية وموقعها وطبيعة المجتمع الذي استقر فيها شيوخها القيام بمجموعة من الأدوار السياسية المختلفة والمشاركة فيها بشكل أو بآخر حسب الإمكانيات المتاحة لديهم، فالنفوذ الروحي لهذه الزاوية جعلها في علاقات مختلفة مع السلطة المحلية والأمراء الذين يتحكمون في المنطقة، وقد استطاع شيوخ الكنتية بتوظيف وسائلهم وأدوارهم الاجتماعية نسج علاقات مع أمراء برنو والفلان في الجنوب والزنوج والتوارق (6) وشنقيط (محمد السعيد، 2016، ص. 38)، كانت تنبني على تقديم النصيحة والتوجيه في سبيل ما ينفعهم وينفع مجتمعهم وبالتالي توطيد سلطتهم، وقد تمكن الشيخ عثمان بن فوذي (7) بفضل تبنيه للطريقة الصوفية

المختارية من توسيع نفوذه وهيمنته السياسية في مجموعة من المجالات بإفريقيا جنوب الصحراء.

وإلى جانب هذا كان للكنتيين دور مهم في حماية الطرق التجارية والقوافل المارة بها عن طريق اهتمامهم بشكل كبير بتعزيز الأمن في المنطقة، فقد كانت بعض فروعهم تتواجد على طول هذه الطرق التي تربط فاس وتافيلالت وتوات وتنبكتو وجنوب الصحراء، وكانت أخبارهم تصل إلى هذه المجالات بفضل التجار الذين كانوا ينقلون أخبار هذه المناطق. ووفرت لهم بعض الصدقات موارد مهمة من استمرار زواياهم في المنطقة خاصة خلال العصر الحديث وتجاوز بعض التحديات التي كانت تظهر بين الحين والآخر على ساحة الأحداث.

ومع بداية التدخل الأوربي في المنطقة ساهم هؤلاء بشكل جلي في قيام حركة المقاومة والجهاد ضده وذلك سواء في الجنوب الجزائري أو في غرب افريقيا، وشيوخ الزوايا كان منهم من اتخذ موقفا صريحا ضد الاستعمار وقام بتقديم كل الدعم للمقاومين من أجل محاربته، وقد مكنت حركات الإصلاح التي تبنتها بعض الطرق الصوفية ومنها الكنتية المختارية في بداية القرن 19 بشكل جلي من مواجهة المد الاستعماري الفرنسي في المنطقة، واستطاع أن يمن بعدة هزائم قبل أن يستطيع السيطرة على غرب افريقيا. والشيخ المختار الكنتي «**أسهم بشكل كبير في اللقاءات المثمرة بين المجاهدين سواء في موريتانيا أو شمال مالي أو الصحراء الغربية أو جنوب المغرب أو الجزائر وغرب النيجر وحتى تشاد**» (محمد السعيد، 2016، ص. 39). أما بالنسبة للشيخ بوعمامة فإنه

اضطر إلى الثورة وقيادة الجهاد بنفسه في شمال إقليم توات بعد دخول الفرنسيين إليها ومحاولة احتلالها (حوتيه، 2007، ص. 226).

ثانيا_ أهم الزوايا الكنتية في المغرب:

1_ قنوات انتشار الزاوية الكنتية في المغرب:

يرتبط انتشار إشعاع الزاوية الكنتية وانتشارها بالمغرب بالعلاقات الطويلة التي كانت بين المغرب وافريقيا جنوب الصحراء منذ القديم، هذه العلاقات التي شملت مجموعة من الميادين وترسخت عبر الزمن، كانت أساس التبادل الثقافي والروحي الذي نسج بين المجالين في العصر الحديث الذي ازداد فيه التواصل بين المجالين بعد حملة أحمد المنصور السعدي على السودان سنة 1586م، فهذه الحملة بغض النظر عن دوافعها، فقد ساهمت في إعطاء دينامية للتواصل الاجتماعي والثقافي والروحي بين المجالين والذي رسخه مجموعة من الفقهاء والمتصوفة من الجانبين سواء من المغرب أو افريقيا الغربية (8)، وموقع المغرب وإشعاعه العلمي ودوره التجاري والروحي مع انتشار مجموعة من الزوايا التي وصل صيتها خارج المغرب بفعل شيوخها كان له دور مهم في انتشار الزاوية الكنتية في المغرب.

ومن أبرز العوامل والقنوات التي مر منها نفوذ الزاوية الكنتية حتى وصل إلى المغرب وترسخ فيه على يد مجموعة من الشيوخ نذكر:

_ **التجار وقوافل التجارة الصحراوية:** لقد ظلت التجارة الصحراوية منذ العصر الوسيط بوابة للمغرب نحو الصحراء وباقي مناطق افريقيا الغربية والسودان، فالتجار كان لهم دور بارز في التعرف على هذه المناطق ونشر الإسلام

فيها بفضل تنقلاتهم المتكررة إليها، فهم لم يكونوا ينقلون المواد التجارية فقط، وإنما كانوا ينقلون ثقافتهم وحضارتهم بأشكال مختلفة، وساهمت القيم الإسلامية في ترسيخ هذا التوجه بشكل كبير مع توسع هذا الدين في هذه المناطق وفي افريقيا جنوب الصحراء مع امتداد نفوذ المرابطين إليها وربطهم علاقات مع إمارات المنطقة (الشكري، 1999، ص. 238).

كما أن حملة أحمد المنصور نهاية القرن 16م والتي كانت من بين دوافعها تعزيز التجارة والسيطرة على قوافل التجارة الصحراوية كان لها فضل في تزايد معرفة المغاربة بالأفارقة والعكس، فهؤلاء أصبحوا يتوافدون على المغرب بشكل واضح من أجل التجارة مما سمح لهم بنقل ثقافتهم بدورهم إلى المغرب، الشيء الذي ساهم في خلق نوع من التبادل الثقافي بين المغاربة وافريقيا (9). وأغلب الطرق الصوفية ساهم التجار بقسط مهم في انتشارها خاصة المعتنقين لها.

والزاوية الكنتية كانت تعطي أهمية كبيرة للقوافل التجارة الصحراوية من خلال سعي شيوخها إلى التحكم فيها بمعية الاتحادية القبلية لكنتة؛ التي كانت تراقب هذه الطرق تحت نظر شيوخ الزوايا، ويبدو أن تأسيس مدينة مبروك خلال القرن 18م والتي أصبحت فيما بعد مركزا صوفيا للطريقة القادرية (حوتيه، 2007، ص. 180)، لم يغب عنه هم التجارة ومواردها بالنسبة للزاوية، وما يمكن أن تسهم فيه من التلاقح الثقافي مع الشمال والجنوب.

وفي هذه العلاقة بين انتشار الزوايا والتجارة يشير العماري إلى أن الزوايا والمراكز الدينية شكلت «**بالفعل إحدى القنوات التي تمت عبرها المبادلات**

التجارية التي لم تنقطع بين طرفي الصحراء الكبرى، لا سيما وأنها كانت تعتبر الطرق التجارية المارة عبر مجال نفوذها ملكا لها وموردا من مواردها الاقتصادية» (العماري، 2009، ص. 276).

_ **رحلة طلب العلم**: كان طلب العلم من قبل الطلبة والعلماء والفقهاء من بين الطرق الرئيسية التي كان لها دور بارز في نشر الطريقة القادرية والمختارية في المغرب وباقي افريقيا جنوب الصحراء، فأغلب شيوخ الزوايا الكنتية كان لهم اهتمام كبير بالعلم وطلبه، وهذا ما يظهر من رحلات فقهائها إلى المشرق والمغرب من أجل طلب العلم، فبقدر ما كان أهالي الصحراء يسافرون إلى فاس ومراكش من أجل طلب العلم والتتلمذ على فقهائها (10)، كان بعض المغاربة أيضا يرحلون إلى الزوايا الكنتية من أجل النهل من علمهم، فهذا السيد بن أبي بكر الكانوني تم إجازته من قبل المختار الكنتي، وأبو محمد يحي بن عبد الله بن مسعود تلقى السند القادري عن المختار (ولد أمينوه، 2013، ص. 18)، وهؤلاء وغيرهم كان لهم فضل في انتشار الطريقة بفعل اهتمامهم بالعلم.

إن ما يبين أهمية طلب العلم والتدريس ودوره في انتشار الطريقة المختارية، هو الاهتمام الذي حضي به التعليم عند شيوخ هذه الزاوية؛ فقد أسست الزاوية الأولى وأغلب فروعها على يد فقهاء جالوا في افريقيا جنوب الصحراء وكذلك في المغرب، بالإضافة إلى التوجه حتى المشرق من أجل طلب العلم. هذا العلم الذي سعوا إلى ترسيخه في أوساطهم وتمريره إلى عدة مناطق في المغرب؛ فشيوخها بقدر ما أخذ بعضهم من الفقهاء، والعلماء المغاربة؛ فإنهم بدورهم استطاعوا أن يؤثروا في السكان المغاربة بأشكال مختلفة من خلال

صيتهم العلمي، وبالتالي فإن مجموعة من الباحثين عن العلم عوض ذهابهم إلى فاس والمشرق فإنهم انقلبوا إلى الجنوب لهذه الزاوية (حوتيه، 2007، ص. 221)، واستطاعوا النهل منها الكثير من العلم ونقلوا مؤلفاتهم إلى البلاد عند رجوعهم (المهداوي، 2022، ص. 337). وهؤلاء هم الذين أسسوا فروعا للكنتية في المغرب مما جعلها تشتهر وسط سكانه خاصة أمام النموذج الذي قدمه الرعيل الأول من هؤلاء الفقهاء والأولياء سواء بأزمور، أو مراكش أو فاس أو مكناس.

وفي ضرورة طلب العلم وأهميته يقول الباحث آدم بمبا من الكوديفوار: "**كان لزاما على العالم الداعية والطالب المريد أن يرحل ويتنقل في أرجاء العالم الإسلامي؛ للارتباط العضوي المتلازم بين العلم ونشر الإسلام، وبين السفر والتجارة. وعلى فرض وجود عالم راكن إلى القعود، أو طالب علم قانع بما توفر من علماء في محيطه الجغرافي الضيق، فإن ذلك كان حكما ذاتيا على نفسه بالضمور، وقطع الشرايين العلمية والفكرية بينه وبين الجسد العالمي الحي النشط**" (بمبا، 2023، ص. 208).

_ **الرحلة للحج وركبه نحو المشرق**: لما كان الحج فريضة على المسلمين وكانت مدته طويلة؛ حيث تزيد في بعض المرات عن السنة بالنسبة للحجيج نظرا لصعوبة السفر وضعف وسائل المواصلات للذين يتوجهون من افريقيا جنوب الصحراء والمغرب، فإن موكب الحج كان ملتقى للتفاعل الحضاري بين الأفارقة والمغاربة، فالحجاج الآتون من السودان وغيرها من هذه المناطق

ينضمون إلى موكب الحج المغربي في نقاط التقاء متنوعة منها الأزواد وتوات وتنبكتو وفاس (بمبا، 2023، ص. 218).

وتذكر المصادر أنه لم يكن هناك ركب واحد فقط فيما يخص ركاب الحج وإنما هناك عدة ركبان عرفها المغرب مثل الركب الفاسي، والركب المراكشي، والركب البحري الذي يسير فيه مجموعة من الحجاج عبر البحر، بالإضافة إلى الركب السجلماسي والذي كان يجمع سكان تافيلالت وباقي وحات الجنوب الشرقي، وأيضا الركب الشنقيطي الذي يأتي بسكان السودان وباقي مناطق غرب افريقيا (بوغوتة، 2024، ص. 21)؛ حيث كان المغرب محطة له قبل الانتقال إلى الشرق، وهذه الركبان كانت تضم عدد كبير من السكان تفوق في بعض الأحيان عشرين ألفا من رجال وخيل (بوغوتة، 2024، ص. 22).

وشيوخ الزوايا ومنها الكنتية كان أغلبهم يحرص على القيام بالحج، وغالبا ما يوسع هذا الحج من معارفهم، وكذلك ينسجون علاقات متنوعة تزيد من مريديهم، خاصة أثناء زيارتهم للشيوخ في المغرب ومصر ومكة، والنشاط الخاص للشيخ أثناء عودته مع ركب الحجيج يساهم في انضمام له أضعاف ما كان من المريدين «**نظرا للثقافة التي تحصلوا عليها والمقامات التي زاروها والدروس التي سمعوها طيلة سفرهم**» (حوتيه، 2007، ص. 222).

2_ فروع الزوايا الكنتية في المغرب:

مكنت قنوات التواصل السابقة من تثبيت الزاوية الكنتية نفوذها في المغرب، فهي لم تقتصر على مد إشعاعها الروحي إلى الساقية الحمراء وباقي المناطق الصحراوية في البلاد من توات وغيرها، وإنما امتد إشعاعها إلى تأسيس

فروع لها في مجموعة من المدن المتوسطة والصغرى آنذاك، كانت تقوم بعدة أدوار مختلفة شملت الميدان الديني والاقتصادي والاجتماعي، وهذه الفروع التي كانت منظمة ظلت على تواصل مع الزاوية الكنتية الأم من خلال مراسلات شيوخها لمقدمي هذه الزوايا ومحاولة اتباع نفس الطريقة الصوفية وبأورادها الصحيحة (ولد أمينوه، 2013، ص. 11).

وشيوخ الكنتية والطريقة القادرية المختارية كانوا متعددين بالمغرب، وتناقل بعضهم الطريقة عن بعض وضمن استمراريتها بفعل الأخذ بسندها من أهم شيوخها مثل محمد الكنتي، ويلاحظ أنهم لم يكونوا ضمن طبقة واحدة، وإنما من عدة طبقات تمتد لثلاث أجيال تقريبا، اختلفت وظائفهم ومهامهم ومنهم من الخاصة والعامة؛ فهذه الطريقة تبناها حتى القضاة والباشوات والمفتين وغيرهم، ومن المجالات التي تواجدت فيها فروع للزاوية، وكانت منظمة كغيرها من الزوايا يمكن أن نذكر:

ـ أزمور: أسس فيها فرع من قبل أحد الشيوخ المشهورين للطريقة والذي ينتمي إليها وهو محمد بن أحمد بن دح الأزموري (11) الذي جاءت ترجمته عند بن إبراهيم (بن إبراهيم، 1993، ج.6، ص. 317)، عاش خلال القرن 19م وتوفي سنة 1867 بمراكش، وكان أيضا شيخ الطريقة بها، وكان يتم في هذه الزاوية تعليم الأوراد المختارية للناس (ولد أمينوه،2013، ص. 19)، بالإضافة إلى أوراد الوزانية والناصرية التي أذن له بتلقينها، والناس كانت تأتي إليها من جميع أقطار المغرب من أجل تعلم وقراءة علوم الحديث والفقه (بن إبراهيم، 1993، ج.6، ص. 319).

ـ مراكش: يعتبر من الفروع التي كان لها إشعاع كبير، نظرا لعدد المريدين والطلبة الذين كانوا في هذه الزاوية، قام على ترأس هذه الزاوية مجموعة من الشيوخ وكان من أهمهم محمد بن أحمد بن دح الأزموري السابق الذكر، ومقدم مراكش كان وطيد الصلة بشيوخ الكنتية، حيث حرص هؤلاء على الاهتمام به ودعمه من خلال المراسلات المستمرة معهم، وكذلك الدفاع عنه لحفظ استمرارية الطريقة بها ومنها أخذ بعض الشيوخ من مناطق أخرى، وهذا ظهر في رسالة أحمد البكاي إلى أهل مراكش وإلى مقدم الطريقة بها مولاي المدني العلوي الشريف والسيد عبد السلام بن الطاهر ومولاي الكبير بن مولاي الطائع (حوتيه، 2007، ص. 215)، ومن التلاميذ المشهورين داخل هذه الزاوية الفقيه عبد الخالق الدباغ وعبد الله الديماني ومحمد بن أحمد الصحراوي (ولد أمينوه، 2013، ص. 11).

ـ فاس: هذا الفرع كان به مجموعة من الشيوخ الكبار منهم العربي بن الهاشمي العزوزي الزرهوني الفاسي (توفي 1844م) الذي كان قاض ومفتي فاس، والذي أخذ الطريقة عن شيوخ أجلاء مثل محمد العربي وابن عبد السلام الناصري. وكذلك الفضيل بن الأمين بن محمد بن عبد الله العلوي الزرهوني (توفي 1907م) وأبي عبد الله محمد بن الهادي الدباغ الحسني الذي يتصل سنده بالشيخ المختار الكنتي الكبير، والفضيل العلوي أخذ أيضا عن ابن دح الأزموري (ولد أمينوه، 2013، ص. 21).

ومن شيوخ هذا الفرع أيضا أبو الجمال محمد الطاهر بن أبي المعالي الكبير الفاسي وكذلك باشا مدينة فاس عبد الله بن احماد البخاري السوسي الذي توفي في سنة 1886 (الشيخي، 2009، ص. 179).

_ مكناس: كانت أيضا قطبا مهما للمختارية الكنتية، وفيها مجموعة من المريدين المهمين، اشتهر على رأس شيوخها محمد المختار بن عبد الله بن أحمد السوسي الفاسي المكناسي العلامة والذي عاش إلى بداية القرن 20؛ حيث توفي سنة 1907م (ولد أمينوه، 2013، ص. 21).

_ الساقية الحمراء: في الساقية الحمراء كان إشعاع الزاوية الكنتية أكثر، ذلك أنه كانت هناك مخالطة كبيرة بين شيوخ الكنتية والسكان من أولاد دليم وأولاد غنام وأولاد اشبل وأولاد سيدي أحمد العروسي (بوفلجة، 2019، ص. 103)، وكان هؤلاء يعطون أهمية للقادرية ويتبنون أورادها، وكان من المريدين من أخذ الطريقة عن علماء شنقيط، وكان لها امتداد حتى في قبائل البيضان الصحراوية وموريتانيا.

ورغم أنه لم تعرف عندنا فروع كثيرة للزاوية الكنتية في المغرب، فإن المريدين والشيوخ التابعين لهذه الزوايا كانوا كثر وينتمون إلى عدة طبقات، تأثروا بالشيوخ الأوائل للزاوية خاصة من أخذ منهم من علماء شنقيط التي كانت قريبة من المغرب (ولد أمينوه، 2013، ص. 19) مثل أبو شعيب الدغوغي البيضاوي الذي كان من خدام الطريقة الكنتية بالمغرب. وقد أورد ولد أمينوه سلسلة تضم عدة شيوخ للزاوية بالمغرب لا يسع المقام لذكرهم كلهم منهم من ينتمي إلى الرعيل الأول والآخر إلى الثاني والثالث.

ساعد على تواجد هذه الفروع وهذا العدد الكبير من المريدين اعتراف المخزن بها كما يظهر من بعض المراسلات مع سلاطين المغرب، وكذلك نهج الزاوية للطريقة صوفية قريبة من الطرق الصوفية بالمغرب مثل الشاذلية والناصرية والوزانية، التي كانت مشتهرة أيضا داخل البلاد خلال القرنين 18 و 19م، واستمرت فيما بعد بوثائر مختلفة. كما أن اتصال سندها الصوفي بمتصوفة الغرب الإسلامي وخاصة مع عمر الشيخ الذي أخذ من محمد بن عبد الكريم المغيلي الورد القادري، ساهم بدوره في تقرب المغاربة من هذه الزاوية، واحتضانها والعمل بأورادها وطريقتها.

ثالثا_ مظاهر إشعاع الزاوية الكنتية بالمغرب:

إن الزاوية الكنتية استطاعت أن تحتل مكانة مهمة لها وسط المغرب إلى جانب زوايا أخرى حتى أنه أصبحت منافسا لها خاصة خلال القرنين 18 و 19م، ومظاهر إشعاعها بالمغرب كثيرة على غير ما ذكرناه سابقا يكفي أن نذكر منها:

_ استمرار التواصل بين الزاوية والسلاطين العلويين في المغرب منذ عهد مولاي إسماعيل ومحمد بن عبد الله الذين سمحا بامتداد الزاوية إلى مناطق الصحراء المغربية وواحاتها؛ فالقادرية كان لها « **حضور متميز في المغرب، خاصة لدى المولى إسماعيل وسيدي محمد بن عبد الله** » (شكراوي، 2009، ص. 71)، وكذلك استمرار المراسلات بين شيوخها وهؤلاء السلاطين؛ فهذا المختار الصغير راسل عبد الرحمان بن هشام بعد أن تعرف عليه من تلاميذ الزاوية القادمين من المغرب في رسالة مشهورة عنوانها "**الرسالة العجالة الرائقة**

في العمالة"، وأرسل إليه كتاب "**الروض الخصيب الطيب في الصلاة على النبي الحبيب**" (ولد أمينوه، 2013، ص. 9).

ويظهر من كل هذا أن الزاوية كانت تقدر الشرفاء العلويين حتى أنه كانت تؤيد حكمهم في المغرب رغم عدم إعلان هؤلاء صراحة البيعة للسلطان المغربي (ولد أمينوه، 2013، ص. 12)، وهؤلاء دعموا النفوذ الروحي للزاوية من أجل ملء الفراغ السياسي في بعض المناطق الصحراوية واستتباب الأمن وتوفير الحماية للقبائل والتحكم في البعض الآخر الذي كان ساهم في الاضطراب (الشيخي، 2009، ص. 183)، وكذلك حماية الطرق التجارية بين تنبكتو والمراكز التجارية المغربية كما فعل مولاي إسماعيل عندما ركز الزاوية في الساقية الحمراء (العماري، 2009، ص. 281).

_ مشاركة الزاوية الكنتية في الصراع الذي كان بين الطرق الصوفية حول النفوذ الروحي بالمغرب خلال العصر الحديث، وخاصة بعد ظهور الدرقاوية والتيجانية على خط الأحداث؛ حيث حاولت هذه الأخيرة الدفاع عن وجودها بأشكال مختلفة نظرا لطابع المحاربة الذي لقيته القادرية من هذه الطرق بالمغرب وافريقيا. وقد برز صراع التيجانية والقادرية في عهد الشيخ أحمد البكاي، ويظهر ذلك في المساجلات الفكرية بينهما ومحاولة كل طرف إظهار ضعف الآخر، بالطعن فيه والكشف عن عيوبه التي يمكن أن تحدث التقسيم في صفوفه، وقد ذهب القادرية إلى أن التيجانية لا توجد عندها طريقة وإنما فقط ورد (ولد أمينوه، 2013، ص. 13. 14). وكان البكاي يرجع نجاح التيجانية في المغرب إلى قلة العلماء وانتشار الجهل (حوتيه، 2007، ص.

220)، وقد تولى أحمد أكنسوس من فاس مناضرة القادرية عن التيجانية في مراسلاته مع شيوخ الكنتية.

وفي هذا الإطار نجد أن المختارية كانت تولي أهمية للسند الصوفي والذي حرصت على أن يكون صحيحا ويرتبط بأعلام التصوف الكبير، وكذلك يرتبط مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ويشير الشيخي إلى أن الكنتيون كانوا يتحرون السند الصحيح إلى الرسول (ص) عبر شيوخهم الذين أخذوا عنهم الورد وقرأوا على أيديهم وقد شدد هؤلاء على السند وبينوا أهميته وقالوا أنه لا سبيل لعلوم القوم إلا بالسند المتصل برسول الله (ص)، وكان الكنتي يكتب « **أما بعد فإن السند هو الصورة الوثقى للعلماء، والصلة المتصلة الموصلة بمددها الأولياء، اتخذه العلماء مغنما والأولياء سلما حتى قالوا: من انقطع به السبب لم يتصل به النسب**» (الشيخي، 2009، ص. 182).

_ ارتباط عمل الزوايا الكنتية وشيوخها بالتجديد في الطرق الصوفية وتطويرها بشمال افريقيا وغربها والسودان، مع إشعاع الاهتمام العلمي والتأليف الذي عرفت به هذه الزاوية، والكنتيين حسب شكراوي يرجع لهم الفضل في تجديد عناصر انتشار القادرية بالصحراء والسودان عن طريق سيدي المختار الكنتي شيخ الطريقة نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م (شكراوي، 2009، ص. 70). وفي هذا أيضا يقول محمد حوتيه بأن الكنتيون هم «**أكثر شيوخ المنطقة إسهاما في علم التصوف بصفة عامة وبالطريقة القادرية بصفة خاصة**» (حوتيه، 2007، ص. 182).

والكنتيون كانوا قاعدة مهمة لانتشار القادرية في جميع ربوع افريقيا حتى النيجر وليس فقط المغرب، وإنما ذاع صيتها حتى في جنوب الصحراء وكل أفريقيا الغربية (بوسليم، 2014، ص. 148)، وذلك نظرا لاهتمامهم بتشكيل قاعدة من المريدين لإيصالها إلى هذه المناطق والمساهمة في نشر الإسلام، وقد ساعد إنشاء مجموعة من المدارس بالصحراء في تكوين مراكز علمية كبيرة للقادرية.

_ ارتباط أسانيد وأوراد الطريقة القادرية المختارية والبكائية ببعض الطرق الصوفية المشهورة بالمغرب؛ حيث كان هناك ترابط بينها في صيغها وفي جميع ما يخص تلاوتها مع وجود تشابه بينها، والكنتيون أعطوا أهمية للشيوخ الكبار للتصوف من مثل الشاذلي والجزولي وزروق وغيرهم ونهلوا منهم، وهو الشيء الذي يؤكده وجود بعض من أوراد هؤلاء عندهم ويشير الحمدي إلى «**أن أسانيد المختار الصوفية شاذلية في عمومها، زروقية جزولية في خصوصها. فإن الباحث يجد إشارات في المصادر الكنتية تشير إلى مجالس التصوف، التي كانت تنعقد في زاوية المختار بأزواد، وهي لا تختلف عن تلك التي كانت تنعقد في المغرب الأقصى. وقد كانوا يقرءون الأوراد المركبة أساسا من الاستغفار، والهيللة والصلاة على الرسول الكريم بصيغ متعددة، والكثير من تلك الصيغ موافق للصيغ المتناولة في أغلب الزوايا. ويداومون، أيضا، على قراءة أحزاب الإمام الشاذلي، وأسماء الله الحسنى لابن عباد الفاسي، ودلائل الخيرات لمحمد بن سليمان الجزولي**» (الحمدي، 2007، ص. 216).

_ انتشار هذه الزاوية في المغرب وإشعاعها في ميدان التعليم والتأليف يؤكده وجود عدة مخطوطات لفقهاء الكنتية بالخزانات والمكتبات المختلفة للبلاد، ولازال بعضها يتم الاحتفاظ به إلى اليوم بالخزانة الحسنية والخزانة العامة بالرباط والتي تسمى اليوم بالمكتبة الوطنية، فهذا التواجد دليل على اهتمام المغاربة بتأليف شيوخ الكنتية (المهداوي، 2022، ص. 338).

والتأليف والتدريس ساهم في التبادل الثقافي بين افريقيا جنوب الصحراء وافريقيا الغربية والمغرب على طول مجموعة من العصور؛ حيث كان نسخ الكتب وبيعها وتأليفها يساهم في نشر الأفكار وانتشارها بين الطرفين مما يعزز العلم والمعرفة في هذه البلدان، والتي أسست فيها عدة مراكز علمية لتدارس هذه المؤلفات العلمية المختلفة.

الخاتمة:

ختاما، فإن الزوايا الكنتية في المغرب خلال القرنين 18 و 19م، استطاعت أن تكون محاور رئيسية للتعليم والروحانية، وذلك بفضل مجموعة من الشيوخ والعلماء والفقهاء الذين تبنوا طريقتها الصوفية القادرية، على سند شيوخ الكنتية الذين أخذوها عن بعض العلماء المغاربة، كما أن الاهتمام العلمي لهؤلاء كان ذات أهمية في وصول إشعاع الكنتية إلى المغرب.

ودراسة الزاوية الكنتية ووصول إشعاعها إلى المغرب يؤكد عمق الروابط التي كانت بين المغرب وافريقيا جنوب الصحراء وباقي السودان الغربي، منذ عقود قديمة ساهمت هذه الزوايا في ترسيخها بفضل هذا التواصل الروحي الذي

استمر لقرون عديدة كان فيها كل مجال يؤثر على الآخر بأشكال مختلفة، تبعا للظروف المحيطة بها على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

الهوامش:

(1) _ «**ثم لم يزل سيد محمد الكنتي بأخواله حتى تدرب وحفظ القرآن ومهر في سائر الفنون، وكان مجاب الدعوة، لا يجاريه في مجاري خلف، وهو أغلى وزنا وأعلى محلا، دام يحي ما قد أميت من الفضل، وينفي فقرا ويطرد محلا، ثم رجع إلى الصحراء ما بين تيرس إلى الساقية الحمراء**». (ولد السالم، 2010، ص. 341).

(2) _ تنسب القادرية إلى عبد القادر الجيلالي (زبادية، ص. 229)، وهي من الطرق الصوفية المشهورة في العالم الإسلامي، وعرفت انتشارا كبيرا خاصة في شمال افريقيا وغربها، وقد سيطرت على الطرق الصوفية حتى بروز الدرقاوية والتيجانية التي تنافستا معها، وكان لها أتباع كثر بفعل تواجد عدة شيوخ لها وعرف بها الكنتيون بشكل جلي (زبادية، ص. 231).

(3) _ المختار الكبير بن أبي بكر بن الوافي أخذ الطريقة عن الشيخ علي بن الحبيب زعيم القادرية، وهو الذي استقر بالأزواد وحاول نشر الطريقة بها (الشيخي، 2009، ص. 178).

(4) _ «**أبو عبد الله محمد الكنتاوي بأرض أزوات بالقرب من تنبكتو، كان من أعلام العلماء والأئمة الفضلاء وأحد الأساتذة المشهورين والجهابذة المعروفين. أثنى عليه الشيخ رفاعة في رحلته وقال ألف مختصرا في فقه مالك ظاهر به مختصر خليل وألفية ظاهر بها ألفية بن مالك، وله مصنفات في كثير من العلوم الظاهرية والباطنية، وله أوراد وأحزاب كأحزاب الإمام الشاذلي**» (مخلوف، 1349ه، ص. 377).

(5) _ عمر الشيخ بن أحمد البكاي هو الذي التقي المغيلي (ت 940ه/ 1533م) وأخذ عنه الورد القادري، وسمى طريقته بالبكائية نسبة إلى أبيه (الشيخي، 2009، ص. 177).

(6) _ يعيد صاحب تاريخ السودان المؤرخ السعدي التوارق إلى صنهاجة وصنهاجة يرفعون نسبهم إلى حمير (السعدي، 1898، ص. 25)

(7) _ عثمان بن فودي ترك عدة مخطوطات ورسائل في الدفاع عن الطريقة القادرية منها إحياء السنة وإخماد البدعة وأصول الدين وأصول الولاية وشروطها والسلاسل القادرية والسلاسل الذهبية للسادات الصوفية (حوتيه، 2007، ص. 223)، وحول دور الشيخ عثمان في نشر الإسلام خاصة في نيجيريا يمكن مراجعة بحث الإسلام في نيجيريا للباحث آدم عبد الله الإلوري.

(8) _ حول العلاقات الروحية بين المغرب وافريقيا جنوب الصحراء يمكن مراجعة مقال بويزكارن هشام الذي نشر ضمن كتاب المغرب وافريقيا جنوب الصحراء من منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير سنة 2018.

(9) _ حول أهمية التجارة العابرة للصحراء في تاريخ المغرب الحديث وتطوراتها والمحاور التجارية والبنية الاجتماعية المرتبطة بها يمكن مراجعة الدراسة القيمة التي أنجزها الحسين العماري سنة 2003 من أجل نيل شهادة الدكتوراه، وقد تم طبعها سنة 2019، ودراسة مهدي رزق الله أحمد حول حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي افريقيا.

(10) _ كانت الزاوية حسب العماري ترسل طلبتها إلى جامع القرويين بفاس على نفقتها، وبعد أن يصبحوا أساتذة يعودون إلى المنطقة (العماري، 2009، ص. 283)، وارسال الطلبة أيضا لم يقتصر على الزوايا وإنما اهتم به حتى السلاطين به؛ فمملكة الصونغاي ومالي كانت ترسل الطلبة والعلماء إلى فاس على نفقتها (بمبا، 2023، ص. 216)

(11) _ يقول ابن إبراهيم في حق هذا الشيخ «**كان رحمه الله شيخ الطريقة جامعا بين الشريعة والحقيقة، آية في الحديث والفقه وطريق القوم، أديبا شاعرا، أريبا ماهرا، جوادا سمحا، جزيل المعروف موقنا من الله بالخلف ومن رذيلة البخل مصروف، كانت تأتيه الهدايا والصلات، فلا يقوم من مجلسه حتى لا يبقى لها بين يديه ثبات**» (بن إبراهيم، ج. 6، ص. 317).

المصادر والمراجع:

المصادر:

_ السعدي، عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر، **تاريخ السودان،** نشر المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية، مكتبة جامعة جورج واشنطن، السنة: 1898.

_ السملالي، العباس بن إبراهيم، **الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام،** راجعه: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة: 2، السنة: 1413ه/ 1993م.

_ مخلوف، محمد بن محمد، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،** المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر، السنة: 1349ه.

_ ولد السالم، حماه الله، **تاريخ بلاد شنكيطي (موريتانيا) من العصور القديمة إلى حرب شربيه الكبرى بين أولاد ناصر ودولة ابدوكل اللمتونية،** دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: 1، السنة: 2010.

المراجع:

_ الإلوري، عبد الله، **الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني؛ المجاهد الإسلامي الأكبر بغرب افريقيا والجد الأعلى للشهيد أحمد بللو،** نشر دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، مكتبة الإسكندرية، السنة: 1435ه/ 2013م.

_ الشكري، أحمد، **الإسلام والمجتمع السوداني؛ إمبراطورية مالي 1230ه_ 1430م،** نشر المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، السنة: 1420ه، 1999م.

_ النحوي، الخليل، **بلاد شنقيط المنارة ... والرباط: عرض للحياة العلمية والاشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)،** المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، السنة: 1987.

_ حوتيه، محمد الصالح، **توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي): دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية**، دار الكتاب العربي، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، السنة: 2007.

_ زبادية، عبد القادر، **دراسة عن افريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين**، مطابع ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

_ عماري، الحسين، **المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن 16م إلى القرن 18م**، نشر مطبعة وورك بيرو، بني ملال، الطبعة: 1، السنة: 1440ه/ 2019م.

_ مهدي رزق الله، أحمد، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي افريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، مطبعة مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة: 1، السنة: 1419ه/ 1998م.

المقالات:

_ أج ولد محمد ولد أمينوه، **دور القادرية الكنتية في التبادل الثقافي بين بلاد شنقيط والمغرب خلال القرنين 18 _ 19م**، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، يصدرها فريق بحث المعارف للدراسات التاريخية والاجتماعية ونشر التراث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، موريتانيا، العدد: 1، السنة: 2013.

_ الشيخي، أحمد، **الطريقة البكائية الكنتية بالصحراء ودورها العلمي والصوفي**، الزوايا في المغرب، منشورات وزارة الثقافة المغربية، مطبعة دار المناهل، السنة: 2009، ج: 2.

_ الظريف، محمد، **الكنتي، الشيخ المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي**، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، السنة: 1410ه/ 1989م، ج: 20.

_ العماري، الحسين، بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر الحديث وبداية المعاصر، الزوايا في المغرب، منشورات وزارة الثقافة المغربية، مطبعة دار المناهل، السنة: 2009، ج: 1.

_ المهداوي، محمد، **إسهام التراث العلمي للكنتية في ترسيخ قيم التصوف السني بافريقيا: محمد المختار الكنتي (ت 1826ه) وكتابه جنة المريد دون المريد أنموذجا**، مجلة العلماء الأفارقة، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، السنة: 3، 2022، العدد: 5.

_ بمبا، آدم، **الرحلات العلمية وأثرها في انتعاش التواصل العلمي ببلاد السودان الغربي**، مجلة العلماء الأفارقة، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، السنة: 3، 2023، العدد: 6.

_ بوسليم، صالح، **جهود الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي في نشر الطريقة القادرية بالساحل والغرب الافريقي خلال القـرنين 19-18م**، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد: 5، العدد: 2، السنة: 2014.

_ بوغوتة، عبد الله، **دراسات في الرحلة الحجية المغربية (4): نشأة الرحلات الحجية المغربية وتنظيمها**، مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد: 1، العدد: 9، ج: 2، السنة: 1، دجنبر 2024.

_ بوفلجة، حرمة، **المدرسة الكنتية الرقادية بزاوية كنتة ودورها التربوي والتعليمي**، مجلة رفوف، المجلد: 7، العدد: 4، السنة: ديسمبر 2019.

_ بويزكارن، هشام، **العلاقات الروحية بين المغرب وافريقيا جنوب الصحراء**، ضمن كتاب المغرب ودول افريقيا جنوب الصحراء: ذاكرة تاريخية مشتركة وآفاق مستقبلية واعدة، مطبعة: NEGOCE COM، الطبعة: 1، السنة: 2018.

_ شكراوي، خالد، **الأصول التاريخية للطرقية في حوض السينغال**، الزوايا في المغرب، منشورات وزارة الثقافة المغربية، مطبعة دار المناهل، السنة: 2009، ج: 1.

_ محمد السعيد بن سعد، **سيدي المختار الكنتي: حياته وآثاره**، مجلة الذاكرة، نشر مختبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد: 7، السنة: ماي 2016.

_ ناعمي، مصطفى، **كنتة**، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، السنة: 1410ه/ 1989م، ج: 20.

_ يعقوب، علي، **عثمان بن فوذي ومنهجه في التربية الروحية،** مجلة العلماء الأفارقة، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، السنة: 1، أكتوبر 2019، العدد: 1.

الدراسات الجامعية:

_ الحمدي، أحمد، **المساهمة العلمية للمختار الكبير الكنتي بأزواد 1142_1226ه/ 1729_1811م،** رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2007_2008م.